كمرآتك

حنان الأحمد

إهداء

هذا الكتاب هو إهداء لكل من تمنى أن يقرأه يومًا، أن يرى اسمي فوقه، لكل قلب آمن في هذه اللحظة كإيمانه التام بأن الخلود ما هو إلا كَذبة الجبناء.

هذا الكتاب هو إهداء إلى أمي التي لم تقرأ لي أيّ نص قط إلا أنها قد أخبرت الجميع بأنني كاتبة من قبل أن ترى كتاباتي النور حتّى!

هوَ إهداء إلى أبي الذي أراد دائمًا أن يضيف كتابي هذا إلى مجموعة الكتب لديه في معتكفه المليء بالكتب!

إهداء إلى أختي التي كانت ومازالت أوّل قرائي وأوّل نقّادي وأوّل الساعين لاقتناء هذا الكتاب الذي قد قرأت جميع محتوياته مسبقًا!

هذا الكتاب إهداء إلى عائلتي بأجمعهم من اكتشف منهم قدرتي على الكتابة ومن لم يكتشف بعد!

وأخيرًا هذا الكتاب هوَ إهداء لي من حياتي السابقة التي لم أخترها لنفسي لأهديه بدوري للحياة ونفسي التي اخترتها الآن!

المقدمة

أن نتشارك المشاعر رغم اختلاف المواقف، نتحدث عن أنفسنا لنصف حياة الآخرين دون أن نعلم، هذه هي الصدفة بل هذه هي الحياة.
بين هذه القصص القصيرة ستجد في كل واحدة منها جزءًا منك، جملة تصف ما عجزت أنت عن وصفه، ذكرى مازالت تعيش بداخلك، ستشعر ولو لوهلة بأنني أكتب عنك وربما أتحدث معك، ستكون أحد أبطال قصصي وأحد ضحاياها، ولربما ستبتسم حينما تستوقفك جملة لتخبرك بأنك أنت من كتبها ولكن من خلالي!
لم أكتب لنفسي وإن سقطت نفسي مني سهوًا بين السطور، وإنما كتبت لأخبرك بأنني أشعر بما تشعر أنت به، أرى ما سبق لك رؤيته، لأحيي ما حاولت أن تميته عمدًا، لأذكرك بنفسك قليلًا وإن لم نلتقي قط!
هذه القصص هي حياتك، ولكن صدقني هذه المرة هي ليست بصدفة!

كَلونٌ رماديّ، كَحياة بدونك!

كان جسده النحيل ملقى على السرير بينما كان الجميع ملتف من حوله وبلهفة غريبه لتقديم المساعدة وعلى أكمل وجه، حاولت فتاة لا تقل نحالة عنه أن تخترق تلك الصفوف من حوله حتى تتمكن من الاقتراب منه، استغرقها ذلك بضع دقائق قبل أن تبقى صامتة بجوار جسده الهامد لدقائق أطول، صاحت امرأة عجوز قائلة بتعجب واعتراض:

- كيف حدث ذلك!! كيف سقط هذا الرجل فجأة!!

قاطعتها الفتاة: فجأة؟!! ما حدث له ليس مفاجئ أبدًا!! كيف لك قول ذلك!!

رد رجل آخر على تلك العجوز متجاهلين تعليق الفتاة تمامًا!

- نعم!! إنه لشيء مثير للعجب فعلاً!! لقد كان بخير!!

صاحت الفتاة مرة أخرى وبصوت مرتفع أكثر: لا!! لم يكن!!

نظر إليها الجميع لثوانٍ ثم عاودوا التذمر متجاهليها مجددًا، نصف ساعة من الزمن ليفتح الرجل عينيه ببطء حتى بدأ الضجيج حوله يزداد شيئًا فشيئًا والأسئلة تنهال عليه بكثرة، هل أنت بخير؟ ما لذي حدث؟ هل تحتاج إلى شيء؟ ماء؟! طعام؟! أترغب بتغطية جسدك؟ قدميك؟ أتشعر بالحر أم ترغب بتخفيف تبريد الغرفة؟ أنطلب لك الممرضة؟ هل تحتاج للنهوض؟ كان الجميع يسأل فقط ويجري للمساعدة باستثناء تلك الفتاة التي اكتفت بالمشاهدة لساعة إضافية من الزمن إلى أن قطع أحدهم صمتها بإخباره أنه قد أحضر له ثياب نظيفة ليرتديها، هنا وفي هذه اللحظة صاحت الفتاة باعتراض:

- لكنه لا يحب هذا اللون!! إنه يكره اللون الرمادي!!!

نظر الجميع نحوها قبل أن يتم تجاهلها مكررًا من الجميع باستثناء الرجل الملقى على السرير فقد ابتسم لها بهون قائلًا بسخرية:

- لا مشكلة يا صغيرتي، لقد جرت حياتي كلها كما أحب فلا مشكلة الآن من التنازل هذه المرة!

لم يضحك أحد سواه فلا أحد قد فهم دعابته سوى تلك الصغيرة التي اكتفت ملامحها الحزينة الصامتة بالتعليق، استغرق هذا الزحام في تلك الحجرة الصغيرة مدة من الزمن قبل قدوم الطبيب إليها الذي بمجرد مغادرته غادر الجميع خلفه مباشرة، وأخيرًا تمكنت الفتاة من الاقتراب منه أكثر لتجلس بجوار قدميه قائلة بصوت خافت:

- هل أنت بخير؟!

- لا أعلم!

- كان يجدر بي السؤال هل أنت حزين؟!
ضحك بوهن قائلًا: لا أعلم أيضًا!!
- أتعلم، تكاد عيناي ألا تصدق ما كانت تراه منذ ثوان، هل الجميع يحبك فعلا!! ويعتني بك!!
- أحقًا تسألين أم تسخرين؟!
- ألم ترى كيف تهافت الجميع للمساعدة!!
- نعم!! حينما تَبَقّى من حياتي ثمان وأربعين ساعة مُدّت الأيدي إلى للمساعدة!! أين كانت هذه الأذرع في الأربعين سنة الماضية!! تلك الأذرع رأتني أستنجد ولكنها اكتفت بالمشاهدة والتجاهل فقط!! أخبريني كيف ستساعدني الآن إذًا؟!!
- إنك لمحق تمامًا ولكني تعجبت من انتظارهم الطويل ولساعات لأجلك!
- ليس لأجلي، بل لأجل أن يجدوا ما يتحدثون عنه فالأيام القادمة!! انظري من حولك، أين هم الآن؟! ها هم قد تلاشوا بعد أن عرفوا من الطبيب ما حدث لي!! لم يرغب أحدهم الآن بالجلوس معي لساعة إضافية من عمري!!
- أرجوك توقف عن قول ذلك!!
- أترين ثيابي النظيفة!! وها هو الطعام أمامي أخيرًا!! سرير حقيقي تحتي وليس رصيف أو كرسي خشبي!! كنت أبحث عن هذه الأمنيات طوال حياتي وها هي الآن من حولي، طعام لا أستطيع تذوقه، ثياب نظيفة لن يراها أحد سواي وسرير لا تستطيع أعضائي التي قضى عليها المرض أن تشعر بنعومته!
بكت الصغيرة بصمت قال لها مجددًا:
- لا تبكي فأنا لست حزيناً، لقد تجاوزت الحزن منذ زمن، أنا ساخر ساخط وضعيف، لم أعد أرغب بتلك الملذات التي ليست لي، ولا لهذه الحياة التي لم تكن لي ولا ليوم واحد سوى اليوم الذي سترحلني به!! أنا أكرهها كثيرًا، أكرهها لأنها ستتركني مجددًا ومجددًا وحيدًا وكأنها لم تكتفي من تركي قط، أكرهها لأنني ورغم حنقي الشديد منها إلا أنني لم أرغب ولا لمرة بأن ترحلني!!
ثم أجهش بالبكاء!!! ثوان ووجدت الفتاة نفسها خارج الغرفة بعد أن تدخلن الممرضات لإخراجها من المكان.
بعد مضي أربعٍ وعشرون ساعة من وقوع هذه الحادثة بدأ صوت الضجيج يأتي من خلف باب منزلها القديم، فتحت الفتاة الباب بهلع لتجد الجميع مجددا خلف ذلك الباب المهجور من قِبلهم ينظر إليها، صاحت بخوف:
- ما لذي يحدث!؟ ماذا هناك؟!
أجاب رجل من المقدمة قائلًا:
- لقد علمنا بأنك كنتِ آخر من رآه قبل موته فهل هذا صحيح؟!
- ما لذي تقوله يا رجل!!!

تدخلت عجوز أخرى قائلة:
- أخبرينا ما لذي حدث يا صغيرة!! كيف لفظ أنفاسه الأخيرة؟!
صمت عمّ المكان ونظرات الدهشة مازالت تكسوا وجهها، قالت بعد ثوانٍ طويلة:
- هل أنتم هنا جميعًا فقط للاستماع إلي؟! لي أنا؟!
صاح رجل بتذمر:
- آوه، نعم نعم، هيا تحدثي بسرعة إننا منصتين!!
كرّرت كلماته بدهشة أكبر:
- منصتون!!! أأنتم منصتون؟! منصتون لي أنا؟!
أخذ الجميع ينظر بشك إلى بعضهم البعض سائلين عن سلامة عقلها، صاحت الفتاة بصوت مرتفع:
- أَلآن تنصتون!! فلتستمِعوا إليّ بإنصات إذًا!! عليكم وعلى فضولكم اللعنة ولتترُكَكُم الحياة وترحل كما تركته!!!
ضربت الباب بعد أن وضعت كل قوتها عليه أمام تلك الأوجه الغارقة في صدمة جماعية، توقفت خلف الباب لثوانٍ لم تسمع فيها سوى صوت نبضات قلبها الصارخة بسرعة، ثم فتحت الباب لتجد كل شيء ثابتاً على حاله كما تركته وآثار الصدمة مازالت حيّة في أرجاء المكان، تنفّسَت بعمق وقالت:
- لقد كان يكره اللون الرمادي، الآن ستتذكرون ذلك حتمًا!
هذه المرة دفعت بالباب وقد وضعت عليه كبريائها فقط!

*****

الحقيقة رجل، والحلم امرأة!

كانت المائدة الخشبية الكبيرة تسع لأكثر من ثلاثتهم، بصمت عميق جلس الثلاثة يحركون كفوفهم موهمين أنفسهم بأنهم يتناولون الطعام، صمت طويل لم ينقطع إلا بعد أن رفعت أكبرِهم رأسها من على الطبق لتسأل الشاب بجوارها بوقار يشير على أنها أكثرهم تعقلًا: متى ستأتي زوجتك لتأكل معنا؟

لم ينظر إليها ولم يرد، فلم يكن هناك أي داعي إلى رده فأصغرهم قد تبرعت بذلك، قالت بحماس وكأنها تنتظر هذه اللحظة منذ أعوام: أخبرتك مئة مره بأنني سمعتها تبكي!

تجاهلها الجميع، عادت أولاهم تسأله من جديد: ما الذي يبكيها؟

هذه المرة أنزل رأسها نحو طبقه أكثر مع ذات الصمت السابق، قالت الصغرى مجددًا بحماس غاضب: لربما علمت أنه قد كذب عليها!!

- وربما علمت أنه كان محقاً فعلًا في حديثه!!

- ما الذي تقصدينه!؟ لا يؤلم النساء سوى الكذب!!

- أنتِ أصغر من أن تعي وجع النساء، وما يقتلهن، نحن النساء نطالب بالحقيقة حتى نجدها، ثم نبكي ونموت!

- أتقصدين أنه كان عليه أن يكذب عليها!! لا أصدق ما تقولين!! حقًا لا أصدق!!

قالت بسخرية: حينما تصدقين ذلك ستبكين أيضًا لأنها الحقيقة!

- مستحيل، لا أريد الزواج من رجل يكذب على أبدًا، أن يكذب علي يعني أنه يراني مغفلة!!

- عزيزتي، إن كان يراكِ مغفلة فلا داعي لأن يكذب لأنك ستصدقين ما ترغبين أنتِ في تصديقه، حينما تبكين لا لأنه اعتبرك مغفلة، بل لأنك اعترفت لنفسك أخيرًا بتلك الحقيقة التي حاولتِ انكارها وهي أنك جعلتِ من نفسك مغفلة لأجلها ولأحلامها، ربما لأجله أيضا!! خُلقَت الحقيقة للرجل إنما الحلم قد خُلِق لنا!! لتفهمي ذلك جيدًا!!

كان مازال هو صامتًا ينظر للحساء وكأنما صوت الحديث قادم من طبقه لا من أفواههم، أردفت صغراهم بعد ثوان الصمت الحائرة: لم أفهم إن كنتِ ترغبين بزوج كاذب أم أنك تنعتين نفسك بالمغفلة!!

- لم أفهم غضبك في كلا الحالتين!! لكني أفهم حزنك على زوجة أخيك، دعيني أتحدث معه قليلًا لنتمكن كلتانا من فهم ما يجري رجاءًا!!

التفتت برأسها نحوه بهدوء وقالت: أخبرني هل اكتشفت كذبك كما تؤمن أختك الثائرة، أم أنك صارحتها بالحقيقة أخيرًا؟!

لم يرفع رأسه لتمر دقيقة كاملة وكأن الزمن قد توقف عليهم جميعًا حتى باتوا كصورة ثابتة من مشهد درامي لفلم قديم، تنفست الكبرى بعمق وأشاحت ببصرها عنه، ما إن تحركت هي حتى انفجرت الصغرى من جديد: أخبرتك بأنه قد كذب عليها وهي الآن تبكي افتضاح أمره!!

- صمتًا يا فتاة!! ما بك وكأنكِ بركان لا يهدأ!!!
- ألا ترين كيف به لا ينطق بكلمة، يكاد عنقه أن يتحجّر من وضعية الانكسار هذه!! كيف لك أن تنتظري جوابًا منه؟!
- إن لم تصمتي حالًا ستخرجين من هنا بصحبة هذه الأطباق المتسخة!!
تأففت الفتاة بصوت عالٍ وكأنها تعلن أنّ لصمتها ضجيجاً، نظرت أولاهم نحوه مجددًا لتقول بذات الهدوء: أتبكي همّها، أم أنت من يبكيها؟
- أنا من أبكاها
صرخت الصغرى مجددًا: أبكاها!! قل يبكيها حتى هذه اللحظة!! حسنًا حسنًا سأصمت!!
تغيرت نبرة صوتها في جملتها الأخيرة بعدما رأت وجه كبراهم موجهًا نحوها.
- نعم أنا من يبكيها وربما سيبكيها طويلًا!!
- أخبرني، هل بسبب الكذب أم الحقيقة؟
- وما الذي سيتغير!؟إن كنت قد كذبت أم أخبرتها بالحقيقة ها هي تبكي!!
- سيتغير الكثير، إن كان الكذب فزوجتك ستشفى وقد تعود إليك إنما الحقيقة فلتعلم أنها قد ماتت بالنسبة إليك وقد قتلتك معها!
نظر إليها بعينين واسعتين خائفتين وكأنه قد وعي مؤخرًا بأن ذلك الصوت لم يكن إلا شخصًا جالساً بجواره لا ذلك الطبق!!
- ما الذي تقولينه أنتِ!؟ أين حديثك عن الصدق!!
- كنت أخبركم بما اعتدنا على قوله، ما توارثناه منذ الأزل، وها أنا الآن أخبرك بالذي سيحدث حقًا، بالذي نعرفه جميعًا لكننا تغافلنا عنه، أنت خُلقت لتعرف الحقيقة، نحن خُلقنا لنحلم فإن علمنا الحقائق خرجنا من أنوثتنا لنصبح رجالًا، زوجتك الآن أمام طريقين، إما أن تضحّي بك وترحل أو أن تضحّي بأنوثتها وتبقى معك كرجل يشابهك، لتستعد أنت لقرارها!!
- أمخطئ أنا لأنني كنت صادقًا؟! يا للسخرية!!
- بل مخطئ لأنك لم تتمكن من فهمها حتى الآن!!
ابتسمت له بحزن ورفعت كأسها لتشرب وكأنها تخبره بأن الأمر قد انتهى عند هذه النقطة، صوت خطوات ثقيلة قد اقتربت من الحجرة ليطل بعدها وجه عابس قد حولته المياه المتفجرة من عينيه إلى قطعة حجر جافة بعكس ما تعلمناهُ من الطبيعة حولنا، سحبت الكرسي بقوة وجلست لتنظر نحوه بحقد عميق وبكل حزمها قائلة: لتعلم بأنني سأبحث عن وظيفة أشغل بها وقتي، فأنا لست بخادمة لك بعد هذا اليوم!!
وضعت كأسها بسرعة بعد أن وجدت صعوبة في ابتلاع ما في حلقها وإخفاء الضحك في آن واحدة لتقول بعد ثوانٍ بصعوبة وبصوت مختنق: هنيئًا لك، ها هي وقد اختارت الطريق الثاني!!

*****

سطح الطاولة!

تلك اللّوح المرصوصة بجوار بعضها قد جعلته يغوص في تأمل كل تفصيلة قد خطّت في دواخلها لأكثر من ساعة، تحرك أخيرًا نحو طاولة مدورة صغيرة من الخشب قد حملت على رأسها كوبين بيضاوين بقهوتهما السوداء حيث لا عنصرية ولا أعراق ومفارقات قد تدخلت في التحامهما، جلس نحوها وحمل كوبه متنهدًا بعد أن أتعبه الانبهار، قال بعد دقيقة كاملة:

- كم ترسمين بشكلٍ جميل!!

حملت كوبها بابتسامة لطيفة قائلة:

- بل أنت من ينظر بشكل جميل.

أسعف كفه الأولى بالثانية ليحتضن كوبه جيدًا وكأنه قد خشي عليه من السقوط خجلًا ليقول بضحكة صغيرة:

- والآن من يجب عليه شكر الآخر!!

- جميعنا يجب أن يشكر، آن لنا أن نكتفي من جعل الشكر مقصوراً على شخص واحد لأن الآخر قد أخبرته عظمته بأنه هو يُشكَر فقط ولا يَشكُر!!

- كيف تقلبين موازين كل حديث يا فتاة!! لم أقصد ذلك أبدًا!!

ابتسمت قائلة: إنما أنا أقصد كلماتي تلك حرفيّا.

نظر إليها لثوان ثم قال:

- أتقصدين كلماتك الأولى تلك أم حديثك الأخير هذا؟!

ضحكت بصوت عالٍ لتزيد عليه خجله قائلة:

- كلاهما صدقني!!

حاول إيقافها بكلمات متلعثمة قائلًا:

- لم أكن أريد أن تشكريني!! لم أقصد ذلك!! كنت أحاول فقط أن أخرجنا من إطار الحوار الجدّي!!

- هنا بالذّات وحينما تنتابك هذه المشاعر كان عليك أن تشكر، حينما تخجلك كلمة قد لمستك وأسعدتك لا تحاول الهرب وإنما استمتع بها وأشكر بجديّة!!

- غلبتني بحديثك، كعادتك!

- أشكرك.

وضع كوبه فجأة ونظر بعينين واسعتين قائلًا:

- أتعنين أن هذه الكلمات قد لامستك أكثر من إطرائي السابق على لوحاتك؟!!

- نعم وكثيرًا!!

- مجنونة حتمًا!

- صادقة فقط!

حمل كوبه مجددًا ليرتشف القليل قبل أن ينظر مجددًا نحو لوحة كانت أمامه مباشرة ليسأل بعد دقائق من التأمل:
- وكيف تصفين لي علاقتكما من خلال لوحتك هذه؟!
أمالت برأسها تجاهها وكأنها تراها للمرة الأول لتخبره بعد ثوانٍ طويلة:
- كالأمّ العربية، تنجب أبناء لتتبرأ منهم فاليوم مائة مرة!! كنساء الشرق يتزوجن ليطلبن الطلاق في كل مره!! هي ككل علاقة يجب أن تنتهي وتتوقف لكل ثنائي يعجز عن الانفصال!!
- ولمَ لا تنفصلين!! ما الذي يمنعك؟! لمَ أنتِ عاجزة؟!
- ربما الخوف من الانفصال، ممّا بعده!
- لأول مرة لا أجدك محقة!
- وهل أنت ممّن يظنون بأن الحياة تعتمد على الحق أو المنطق فقط!! هناك ما يفوقهما إنه الجبران، أن تُجبَر على الاستمرار دون منطق ولا رغبة لأنه هذا ما تعتمد عليه الحياة حقًا!!
- أخبريني ممّا تخافين بالتحديد؟! إذا انفصلت ورهبتي بعيدًا ما الذي سيحدث؟ هل تظنين بأن العالم سيتوقف وسينتهي كل شيء؟!! لا تكوني حمقاء!!
ابتسمت لترد بضعف:
- ألا أخشى على العالم أن ينتهي، أخشى ألا أكون صالحة للعيش فيه بعدها!!
- تزوجي من أيّ رجل صالح إذًا وتخلصي من قيود هذه العلاقة دون أن تنهيها دون أن تخسريها للأبد!!
- ألأكون نموذجًا جديدًا يريد الطلاق ويعجز عنه!! أأهرب من قيودي لأتقيد بحبال غير مرئية لرجل مجهول!! وكأنك تخبرني أن أقفز من فوّهة البركان لأحشاء المحيط!
وضع كوبه بسرعة وقفز صارخًا:
- وجدتها!! أنتِ تصفين هذه اللوحة أليس كذلك!؟؟
كان قد وصل إلى لوحة في زاوية الحجرة بقفزتين سريعتين فقط!! نظرت إليه بدهشة لتعاود الضحك من جديد، عاد إلى مكانه خجلًا ليقول أسِفًا:
- أعتذر حقًا أعتذر من أعماق قلبي!!
- لا داعي للاعتذار.
- كنتي تتحدثين بعمق وحزن ولكنّي تصرفت بحماقة، لا أريدك أن تعتقدي بأنّي لم أكن أنصت لكِ!!
- بل أنت قد أثبتّ لي بأنك كنت منصت وبكل جوارحك لذا تمكنتَ من العثور على اللوحة من بين كل هذه اللوح!
ضحك بخجل ليقول: شكرًا لكِ!
رفعت حاجبيها وقالت ساخرة:
- آوه، وها أنت تنفذ ما تنصت إليه!! رائع أنت!!

ابتسم ليرد:
- نعم، ولكن مازلت لا أفهم كل ما تعنيه بعد!
- حسنًا إذًا، لأخبرك ما أعنيه بطريقة عملية!
أمسكت كوبه بكفها الأخرى لتسكبه أمامه على الطاولة وتقول:
- فلتشرب قهوتك الآن!!
- ما هذا!!! ما الذي فعلتيه!! أنا فعلاً لا أفهمك الآن!! كيف سأشربها!!
- هذا ما يفعله الانفصال!! انظر إليهما كلاهما مازال حيّاً أمامك، وسليمان نظريّاً!! ولكنهما الآن غير صالحين دون بعضهما، كوب فارغ وقهوة على سطح الطاولة!!
نظر إليها بعمق لثوانٍ طويلة قبل أن يحاول سحب كوبها منها، قائلاً:
- أشكرك مجددًا على هذا الشرح الرائع ولكنّي لم أُنهِ شرب قهوتي بعد!!
كانت قد أرخت له كفّها عمدًا ليحتسي قهوتها وهي راضية باسمة.

*****

طُوفآن!

صوت خطواته يربكني.. يقلب حالتي من نائمة إلى جالسة ومن جالسة إلى نائمة بلحظة واحدة، أشعر بأنني سأخسر شيئاً إن اقتربت خطواته مني.. سأخسر جزءاً مني.. سأخسر ما تبقى من كرامتي إن تبقى منها شيء...!
كثيراً مانوهم أنفسنا بمحبة تلك الألسن اللاذعة لنا حتى نهدأ ونكمل سير حياتنا الثابت..
كنت أسأله باستمرار حينما كان يرتدي حذاءه الجلدي ليخرج: ما الفرق بين الخوف وبين الحب!؟
فكان يرد على بذات الضحكة الساخرة في كل مرة: وما العامل المشترك بينهما أصلاً!!
ثم يرحل من جديد دون أن يعلم أنه هو العامل المشترك بينهما.. فوجوده خوف ورحيله حب.!
كنت أجلس بجوار حاجياته حينما يغادر أتأملها وألتمسها وأحركها عن أماكنها عمداً لأرضي بذلك نفسي وأقنعها بأنني قد تمردت عليه وخرجت عن طاعته رغم علمي بأنه لن يلاحظ ولم يلاحظ ولا لمرة واحدة تغير أماكنها، فهو يلاحظ حاجياتي فقط وينطق بعثراتي فقط ويتخذ عني قراراتي فقط!
لطالما سعيت نحو الرحيل فلا أملك مفتاح ذلك القفل الكبير الذي وضعه أمام عيني دائماً، ولا أملك أجنحة حقيقية تعوضني عن تلك التي رسمتها في مخيلتي لأبتعد بنفسي وروحي دون أن أتحرك من مكاني!
صرخ عالياً باسمي فجأة رغم أنني بجواره، لم يكن هناك أي داعٍ للصراخ! كانت عبارتي هذه كفيلة بقلب موازين هذا اليوم بأكمله وتحويله من مجرد معركة صغيرة إلى مجزرة عظيمة!
اعتذرت ألف مرة لينتهي وفي كل مرة كان كبرياؤه ينمو ويتغذى على كبريائي.. أجبرني على الجلوس معه ليتابع برنامجه المعتاد المتكرر واضعاً جهاز التحكم بالقنوات فوق كفه ليشعرني بأنه أكثر قداسةَ وأعلى مكانة مني.. لطالما كنت تحت هذه الكف لا أتحرر منها وإن قاتلت.. كنت أنظر نحو ذلك الجهاز هل هو الآن جزء من حاجياته فلا أستطيع لمسه والتحكم به إلا عند غيابه!؟ سألته لأثبت لنفسي بأني أفهمه أكثر من نفسه قلت له بهدوء:
يوجد مسلسل جديد يبث على قناة أخرى أنتابعه سوياً؟!
لم يعلق للحظة طويلة جعلتني أظن أن هدوئي كان مبالغاً به للدرجة التي لم يسمعني بها!
أخذت أحدق به مطولاً حتى قال فجأة:
- لا يوجد شيء يستحق المتابعة لذا سأتابع برنامجي هذا!
ابتسمت من جديد لأجيب نفسي عن سؤالها: نعم هو كذلك من حاجياته!
أخذت أشجعه ليزور أحداً من أصحابه دون جدوى.. ليخرج لأي مكان جميل ويستمتع بالأجواء.. ليتسوق.. ليرحل فقط طالما لا يسمح لي بالرحيل! أيضاً دون جدوى!
نهضت من مكاني سألني بسرعة: أستنامين الآن!؟
كان يعلم مسبقاً بأنّي لا أملك سوى النوم! وبالرغم من ذلك كان يقبل بتسمية حياتنا حياة!

أومأت برأسي له مؤكدة صحة سؤاله ليردف بسرعة أكبر من السابق: هلا صنعتِ لي الشاي قبل ذلك؟!
لم أجبه وإنما مشيت تلقائياً نحو المطبخ ليعلو صوته من جديد:
- حبذا لو كان معه شيء يؤكل أشعر برغبتي لأكل شيء مالح!
وكأنما تنقصه الملوحة! هو يرغب فقط ولا يحتاج.. فلقد تقاسمنا العبارات بيننا في هذا المنزل الرغبة له والحاجة لي، هذه هي عدالته!
كما كانت الكرامة له والذلّة لي، والحرية له والقيود لي، بل الحياة كلها له، والحياة لخدمته لي! إنها العدالة، بل إنها لكثيرة على هذه العدالة كما أخبرني دائماً!
حينما وضعت رغباته أمامه على الأرض قال دون النظر إلي: لو أنك أضفتِ القليل من الحليب معه ولكن لا مشكلة شكراً لك!
ابتسمت بسخرية وتابعت طريقي الذي كنت قد نويت ابتداءه منذ مدّة.. نادى باسمي البائس من جديد، التفت إليه دون إجابة ليسألني قائلاً:
- أتحبينَنِي؟!
كنت قد حرّمت على نفسي هذا السؤال، وإذا به ينتهك حرماتي ليرضي رغباته فقط!
مرّت ثوانٍ من الصمت ليضع كأس الشاي جانباً ويكرر على سؤاله وكأنه يستعد للقتال لا للجواب.! نظرت نحو عينيه المتأهبة لأنهي تساؤله وحياتي معاً قائلة:
أحب رحيلك فقط!

*****

عُرَاة!

بدا صوته بعيداً جداً مقارنة بضجيج المطبخ من حوله حينما سألها بهدوء وكأنه قد استشعر مسبقاً مدى خطورة سؤاله:

- أمي.. لِمَ نرتدي الثياب؟!

صرخت أمه بصوت مرتفع قائلة:

- عزيزي.. ارفع صوتك لا أستطيع سماعك...!

كرر عليها السؤال ثانية وبصوت مرتفع، توقفت فجأة عن الحركة وأطفأت أجهزتها المزعجة لترد بابتسامة واسعة:

- لنغطي بها أجسادنا يا حبيبي...!

أردف مسرعاً: أعلم ذلك.. ولكن لِمَ؟ لِمَ نغطي أجسادنا؟!

رفعت حاجبيها وحل الصمت لوهلة، قالت أخيراً:

- لأنه.. لأنه يجب علينا ذلك...!

لم يزح عينيه الواسعتين عنها.. حاولت أن تقطع عليه سلسلة أفكاره بصوتها المتعجل قائلة:

- عزيزي.. يجب علينا تغطية أجسادنا عن الآخرين.. لأننا.. لأننا لسنا كالحيوانات.!

- ولمَ نحن لسنا كالحيوانات.. ما الفرق بيننا؟! لِمَ نخجل من أجسادنا؟!

- لأننا نحمل عقولاً في رؤوسنا.. أتود أن تكون كالحيوانات بلا عقل؟!

- وكيف حكمتِ عليهم بأنهم بلا عقل؟!

- أووه يا صغيري.. هل سمعت يوماً عن حيوان ابتكر لنا أي اختراع مفيد مثلاً! إنهم يقضون حياتهم بين اللعب والنوم والطعام فقط!!

- أتقصدين مثلنا؟!

صرخت به: أيها الولد!

رد متعجباً: ماذا.. أليس هذا كلامك؟! نحن لم نقم بأي اختراع ونقضي يومنا بين الطعام واللهو والنوم.. تماماً مثلهم ما الذي يغضبك!!

- حسناً حسناً.. هل سمعت يوماً عن حيوان التحق بالمدرسة!! أو أصبح معلماً أو طبيباً!! حتماً لا.. لأنهم لا يملكون عقولاً.. هذا ما كنت أعنيه...!

صمت الطفل لدقائق ثم أكمل قائلاً:

- أمي.. لماذا جدي لم يلتحق بالمدرسة؟!

تجمدت في مكانها لثوان ثم أجابت مسرعة:

- لأنه كان فقيراً.. كان أهله لا يملكون مالاً ليدخلوه المدرسة...!

- نعم.. نعم.. صحيح.. أخبرني جدي أنه كان فقيراً جداً.. كان لا يملك ثياباً ولا طعاماً.. ولم يلتحق بالمدرسة.. أمي أليست هذه صفات الحيوانات؟! ألا يمتلك جدي عقلاً؟!

صرخت به: اخرس يا ولد.. هذا كثير.. كثير جداً...!!

صاح بها: لماذا.. لماذا أنتِ غاضبة!! رغم أن جدي هو من أخبرني بذلك ولم يكن غاضباً ولا خجلاً من نفسه لكونه عارياً كما تخجلين أنتِ الآن...!!
ضربت بقبضتها على الطاولة أمامه وصرخت بقوة:
- من أين أتيت بمثل هذا الحديث!! أنا لم أخجل من والدي أبداً.. أتفهم!!
- إذاً لِمَ علينا ارتداء الثياب؟! لِمَ نغطي أجسادنا؟!
- لأنه.. لأنه...!
حل الصمت من جديد لدقائق.. قال بصوت منخفض ثانية:
- أمي.. هل أجيبك؟!
رفعت بصرها نحوه بحيرة ملازمة لصمتها.. تابع قائلاً:
- لأننا نمتلك مالاً.. أليس كذلك!! إنه الاختلاف الوحيد بيننا وبينهم.. ألستُ محقاً أمي؟!
أشاحت بصرها عنه مجيبة بأصوات أجهزتها العالية.. ساعية لإخفاء صوته الصغير من حولها كالسابق...

*****

غربة جسد!

كان شارداً وهو يتحدث باسترسال دون أن يقطع حديثه لالتقاط أنفاسه حتى! بدا وكأنه يحادث نفسه بصوت مرتفع.. تابع حديثه لها وهو يحرك ملعقته بداخل قهوته الباردة والتي افتقدت نكهتها من شدة الدوار:
- أتظنين أنني حي أرزق؟! أنا جسد بلا روح.. وروح بلا جسد!! أشعر بالغربة في كل مكان.. مغترب في أرضي التي لم تطأ قدمي خارج حدودها ولا لمرة.. مغترب في موطني الذي ولد في أحشائه جدي!! مغترب في عملي.. بل في عالمي.. مغترب حتى في جسدي!! هل سمعتِ من قبل عن مثل هذه الغربة.. غربة الجسد!! لطالما حلمت بذلك البياض يكتسي خلاياي الداكنة.. كبرت وتضاءل معي ذلك الحلم الكاذب الذي أبكاني مرات ومرات.. لطالما بحثت عن إجابة لتلك الأسئلة الساخرة التي تحاصرني.. كنت أبحث عن أي إجابة تنقذني.. بل كنت أبحث عن تلك الإجابة التائهة لأجلي أنا لا لأجلهم.. لأريح عقلي من خلق مثل هذه الأسئلة...!
قطع حديثه لوهلة صوت النادل قائلاً:
- أهناك أي خدمة أقدمها لكما...؟
ردت الفتاة بعجلةٍ:
- نعم أرجوك أريد مزيداً من شرائح الجبن لإفطاري..
- حاضر سيدتي.. وأنت سيدي أهناك مشكلة في الحلوى؟! أراك لم تتذوق منها أي قطعة!!
- أوه.. لا لا أبداً.. لا مشكلة.. أشكرك؟
أومأ النادل برأسه احتراماً منه وغادر المكان يلبي طلبها.. نظرت الفتاة نحوه ثانية بعد أن تنهدت قائلة:
- اهدأ أرجوك.. لا أعلم ما الذي يجب على قوله لك؟!
رد بابتسامة ساخرة:
- أتعلمين.. كل حديثي السابق لم يصف ما أشعر به بعد!!
قاطعته بحزن:
- كفى أرجوك.. إنك لا تقدر نفسك بالقدر الذي تستحقه فعلاً!
عاد النادل بسرعة ليقاطعهم مرة أخرى بصوت الطبق الصغير الذي وضعه أمامها مرفقاً معه ابتسامة صغيرة ليغادر من جديد.. أكملت حديثها قائلة:
- كيف أثبت لك بأن الخلل منهم ليس منك.. لقد عجزت عن إقناعك بمدى روعتك وجمالك.. مدى الراحة التي تنشرها حولك.. بينما هم ينشرون التعاسة من حولهم فقط.. ليتخلل الحزن إلى قلبك بعدها.. كيف أجعلك تعي بأن المشكلة بعقولهم.. بجهلهم.. بغبائهم.. بسذاجتهم!! وأنت مازلت تلتفت إلى مثل هذه التفاهات.. كفى أرجوك!!
أومأ برأسه لها باستسلام بعد أن أسند ذقنه الصغيرة على قبضة كفه، ليرفع بعد ذلك كفه الأخرى ملتقطاً من طبقه قطعة شكولا مزينة واضعاً إياها بجوار شرائح جبنتها المقضومة..

قال لها:
- أشعر تماماً بأنني كقطعة الشوكولا هذه.. وحيداً ببشرتي السمراء حول هذا البياض...!
ضحكت بصوت مرتفع قائلة بتعجب:
- ومن الأبله الذي سيتجاهل قطعة الشكولاتة اللذيذة في طبق الجبن هذا!! لا أحد.. لا أحد!!
تابعت ضحكاتها وهو يحاول إيقافها بصوت أكثر قوة وارتفاعاً:
- بلى بلى.. هناك من سيتجاهلونها حتماً...!
أردفت بسرعة:
- من.. من...؟!
أجابها بسعادة بعد عثوره على إجابة سريعة لها:
- مرضى السكري!
ابتسم بانتصار وكأنه قد نسي محور الحديث الأساسي.. قالت له بصوت هادئ يناقض صوت ضحكاتها منذ لحظة بعد أن اتسعت عينيها وابتسامتها:
- نعم.. أحسنت.. المرضى فقط هم من سيتجاهلها.. أحسنت أخيراً...!
اختفت ابتسامته المنتصرة وحل محلها ابتسامتها الذكية بأسنانها الملطخة بالشوكولا.. لتختم تلذذها قائلة:
- أنت فعلاً تسعدني كقطعة الشكولاتة هذه...!
مد منديله النظيف لها.. لتمسح آثار الحلوى المنتشرة حول ملامحها.. مبعداً نظره عنها حابساً ابتسامته بخجل...!

*****

فقدان..

(فاقد الشيء لا يعطيه!!)
بهذه العبارة رنّ صدى صوتها في أرجاء القاعة بعدما ألقت نظرة غضب ساخرة.. تاركة المكان وخلفها وجوهٌ تحمل تعابير مختلفة!!
نَسِيَت محفظتها كالعادة..
كانت تنسى كل شيء وفي كل يوم، لدرجة أنها تغادرنا دون النظر إلى الساعة خلفها لتخرج مبكرة متناسية النظام معنا!!
تنسى إحضار أقلامها لتصرخ بإحدانا كي يحضر قلماً لها..
تنسى أسماءنا ومقاعدنا..
تنسى مشاركاتنا وأفكارنا..
تنسى أي التزام يخصّها..
ومن ثم تحدثنا عن الاقتصاد، والتوفير.. عن الوطنية، وعن الابتكار، والاختراع.. عن زمنها الذهبي، وأفكارها الجهنمية، وأبيها الذكي.. عن كلّ شيء، وعن أي شيء لا يخصّنا!!
وفي لحظات مللها الأخيرة من المحاضرة تختم بأننا نحن جيل نائم!
جيل يأكل في غير مواعيد الأكل! يتحدث طيلة الوقت في كل شيء وهو لا يفقه شيئاً!!
جيل جاهل بالرغم من سماعنا للمحاضرات كلّ يوم!!
جيل قد يستغنى عنه مع الزمن! فهناك الأجهزة الذكية الآن وما الحاجة لنا إذاً؟!
جيل لا يعطي، ولا يسمع للنصيحة بعدما كانت (بجمل)!!
جيل صامت فعلياً رغم إزعاجه وضجيجه وفوضويته!!
جيل تخجل هيَ منه؟! فهي كانت تحلم بأن ينشأ على يديها جيل مختلف متميز وفعّال..
ولكن سيدتي، لحظة!
وهل فاقد الشيء يعطيه؟!

*****

انكسار!

كل شيء ينكسر سوى الانتظار.. الكبرياء ينكسر.. الحب ينكسر.. حتى أشياؤك الثمينة سيأتي يوم لتنكسر..
ابتسم بسخرية بعد أن قال كلماته المبعثرة وأخذ يحرك كأسه الزجاجية بين أصابعه وهو ينظر لصاحبه المستمع إليه بتركيز.. رفع كأسه وشرب القليل منه ثم عاد ليحركه كالسابق..
قال بعد ثوانٍ لرفيقه:
- أخبرني أنت ما الذي كنت تفعله طيلة تلك الفترة؟
- كنت أعمل كالعادة..
- أوه.. أتقصد أنه في طيلة فترة غيابي لم يتغير أي شيء في حياتك يا رجل..
- لا.. وما الذي سيتغير! حياتي روتينية..
- ولِمَ لا تكسر الروتين؟!
- كيف؟ ماذا أفعل كي أكسره؟!
- ألم تكن تفكر بالارتباط منذ ثلاثة أعوام!
- هه!! بلى.. ومازلت أريده..
- ما الذي يؤخرك إذاً يا رجل؟!
- إنني أنتظر أن يتحسن وضعي المادي.. ربما أحصل على ترقية في عملي..
ضحك بصوت مرتفع ووضع كأسه بعيداً عنه وكأنه خائف أن يؤذيه بصوت ضحكاته أكثر من خوفه على مشاعر رفيقه الذي سكت مصدوماً من تصرف ذلك المبتهج.. قاطعه بعد أن رأى سلسلة ضحكه تأبى التوقف..:
- كفى.. كفى.. ما بك؟! ما كل هذا الضحك؟!
حاول الآخر أن يرد على سؤاله بكلمات متقطعة تخرج من بين ضحكاته بصعوبة بالغة:
- إنك.. اسمع.. استمع.. كلامك..
دقائق قليلة عبرت بين رجل هامد ورجل مرتجف من جراء الضحك حتى حل الهدوء عليه من جديد:
- آه.. ألم تستمع لنفسك.. إنك تنتظر.. أليس هذا ما كنت أشتكي منه لك.. انظروا لمن كنت أفضفض!! حالتك مزرية يا رجل...!!
- أهذا ما جعلك سعيداً.. سحقاً لك إذاً...!
قال رده الغاضب وأخذ ينظر لفنجان قهوته الساكنة كملامحه.. كحياته.. بل ككل شيء..
بينما عاد الآخر ليتلقف كأسه مشتاقاً لتحريكه من جديد.. ارتشف قليلاً منه وأردف قائلاً:
- حسناً إذاً.. أنت ستنتظر وتنتظر! ما هذا البؤس؟!
رد الآخر بغضب:
- لا.. ليس بؤساً.. حتى الانتظار سينكسر يوماً ما..
وضع الآخر كأسه بعد سماعه لتلك الكلمات وعدل من وضعية جلوسه وكأنه مستعد للهجوم ليقول بصوت صارم:

- لا.. الانتظار لا ينكسر.. انظر إلي.. انظر إلي..
رفع صاحبه عينيه ليلبي طلب ذلك الغاضب الذي أكمل قائلاً:
- هذا أنا! عشت هنا ثلاثين عاماً.. أنتظر في كل دقيقة أن أحصل على فرصتي في الحياة.. ثلاثون عاماً كنت أدور بلُوَحِي في كل مكان لعلي أبيع إحداها لأعيش منها.. لعلي أجد فرصة أعيش بها.. ما الذي حدث هاه؟! أخبرني.. أخبرني.. سجنت خمسة أعوام.. لأنني حاولت أن أسجن الفقر قليلاً.. قليلاً فقط! حاولت أن أكسر الانتظار.. لكنه هو من كسرني.. هو من ذلني.. من منّا كان يرغب بأن يسجن بتهمتي.. بأن يعمل في مجالها.. لا أحد.. لا أحد.. سوى الفقير الذي يجبره الانتظار على ذلك..
لحظات صمت وعينان مبتلتان ترطبان تلك الأجواء الجافة القاسية.. رجع ليبتلع ريقه بعد موجة الغضب التي مرت به.. ثم تذكر كأسه وارتشف منه من جديد وأخذ يحركه بصورة سريعة هذه المرة.. قال صاحبه الذي لم ترمش عيناه أثناء تلك اللحظات الساخطة:
- أتعلم.. أنت محق.. أنت محق.. نعم وللأسف.. أنت محق في كل كلمة صرخت بها قبل قليل.
تنهد الآخر وهو يحرك رأسه مشجعاً لتأييد صديقه الحزين.. رفع الاثنان وبصورة آلية مشروبُهُما ليرتشفا منها وكأنهما يعبران عن استسلامهما لاعترافهما السابق.. توقف صاحب الكأس فجأة وأخذ يمعن النظر في مشروبه بينما احتسى الآخر قهوته وأعاد فنجانه مكانه ليسأل صاحبه مستغرباً من نظراته العدائية تجاه الكأس:
- ما بك! لِمَ لا تشرب؟!
- انظر.. إن هنالك ذبابة قد سقطت بداخله!
- حسناً.. حاول إخراجها إذاً.. أين المشكلة؟!
- لا لا.. انظر إليها.. انظر إلى حركاتها.. إنها تبذل كامل جهدها لتنجو!
قال ذلك وهو يقرب الكأس من وجهه ليراها بصورة أوضح.. مناقضاً بذلك طلبه لصديقه الذي أصبح من الصعب عليه رؤيتها فعلاً.. أردف قائلاً:
- أتعلم.. إننا نشبهها تماماً! انظر إليها.. إنها تنتظر أي فرصة للحياة.. أو ربما تنتظر أي فرصة للموت.. لكن بصورة أسرع!
كان شارداً وهو يتحدث ممسكاً بقبر تلك الذبابة بأطراف أصابعه.. حين فاجأه صوت النادل قائلاً:
- سيدي.. هل هنالك مشكلة؟!
قفز متفاجئاً ليقع كأسه بسرعة على الأرض بجواره.. صرخ الرجلان بصوت واحد:
- لقد انكسر!
بينما حاول النادل تهدئتهما:
- لا تقلق.. سيدي سأُحضر لك كأساً آخرَ فالحال..

أخذ الرجلان ينظران بعينين واسعتين تركزان نحو الذبابة المتحركة ببطء نحو بر الأمان.. لتلتقي عيناهُما بعد ذلك بتعابير متفاجئة.. كان النادل قد اقترب بكأس جديدة حينما توقف صاحب القهوة وهو يهتف بانتصار:

- لقد انكسر.. لقد انكسر..

نظر إليه الآخر والدهشة مازالت تسكن عينيه.. دون أن ينطق بكلمة.. بينما حاول النادل المتعجب تهدئة حماس ذلك الرجل قائلاً:

- سيدي أرجوك.. لقد أحضرت له كأساً جديدة.. أرجوك.. لا داعي للقلق..

رد عليه مبتسماً:

- لا لا.. لقد انكسر..

جلس من جديد بعد أن انتقلت له عدوى الضحك وهو يشير إلى تلك الذبابة الناجية ويقول لصديقه الهامد بصورة متقطعة وبصعوبة بسبب سلسلة الضحك ذاتها:

- قلت.. أنت.. الانتظار.. إنها.. انظر.. لقد انكسر**!!**

غادر النادل متعجباً.. تاركاً الرجلين خلفه.. بتأفف.. منتظراً رحيلهما على عجل..

*****

عن ظهر قلب!

دائماً خلفك.. عدد خطواتي مساوٍ لخطواتك.. أرى ما ترينه وما لا ترين.. أراقب كل حركة تقوم بها حتى عينيك.. حفظت كلَّ تعابيرك عن ظهر قلب.. منذ ذلك اليوم وأنا أجهل كم يمضي من الوقت! فلقد سرقتِ وامتلكتِ وقتي! كنت ترمينني بنظراتك المليئة بالكبرياء، إلا أنني كنت لا آبه بها فلقد شغلت بنظراتي إليك.. نظراتي الدقيقة المتفحصة وكأنني أراك للمرة الأولى! لا أعلم ما مدى قوتك ولا حدودها! فلقد استطعتِ أن تعلقي رجلاً كاملاً بقدميك! وتمكنت يداك من تحويل جسد بلحم ودم إلى مجرد ظل يلازمك!

أتعلمين؟! لا.. لا أظنك أبداً تعلمين! لا أظنكِ قد رأيتني أو حتى شعرتِ بوجودي حينما كنتِ تختلسين النظر من بين ممرات العيادة الطبية.. كنتِ خلف مكتبي دون معرفتكِ بأني أنا نفسي صاحب هذا المكتب.. لقد لمحتكِ ذلك اليوم بسرعة إلا أن صورتكِ رسخت في ذهني جيداً ومنذ تلك اللمحة السريعة وأنا تركت وتجاهلت مكتبي وحياتي بكاملها بعدها فقط لأستعيدها!

سحقاً! يا لقوتكِ وسرعتكِ التي لم أر مثيلاً لها في حياتي.. تمضي الأيام والأيام وفي كل يوم يزداد اشتياقي أكثر.. أراقبك كاللص! تباً.. جعلتني أبدو كاللص رغم أنني لا أمتلك ربع صفاته.. رأيتك تخرجين من إحدى المكتبات التي لا أظنك قد استغرقتِ من الوقت بداخلها أكثر من خمس دقائق! يا ترى ماذا تفعل واحدة مثلك بمميزاتك داخل إحدى المكتبات الصغيرة وبمثل هذا الوقت؟! هل تقرأين بهذه السرعة أيضاً؟! لا أعلم سرعتكِ إلى ماذا تشير! الأهمية الوقت.. أم لعدم حاجتكِ إليه؟!

لطالما تأملت ما ترتدين جيداً رغم علمي بأنك ترينني لحظتها.. ولكني شعرت حينها برضاك وحذرك في آنٍ واحد..

كنت أشرب المياه الباردة من زجاجتي حين وجدتك خارجة من منزلك الذي علمت مكانه مسبقاً إلا أنني لم أتجرأ ولو لمرة واحدة بأن أطرق بابك لأفاجئك! ربما لأنني كنت أجهل ردة فعلك لعلها ستكون قاسية كملامح وجهك؟! لذا اكتفيت بالانتظار خارج الباب! رمقتني بنظرة خاطفة حينما وجدتني واقفاً في مكاني انتظر خروجك كعادتي ولكن يا للمفاجأة! فهذه المرة أبعدتِ وجهكِ عني مبتسمة وبدوتِ على غير عادتكِ، فلقد ابتسمتِ عمداً وبرغبة منكِ بأن ألمح ابتسامتكِ! أتودين إبلاغي شيئاً من خلالها سيدتي؟! ولكن ورغم ذلك لم يحن الوقت الذي أجهله لأقترب أكثر ولم يصل انتظاري إلى نهايته بعد ولكن انتهى اليوم كسابقه..

هذا الصباح شعرت بنشاط كبير وأنا قادم إليك! وقفت قريباً من منزلك أنتظر خروجك ولكنك تأخرت كثيراً ولم تظهري حتى الآن! يبدو أنني مللت هذه المرة فلقد تبخر ذلك النشاط.. أخذت أحرك ساقي كالأطفال وأنا جالس على الرصيف المقابل إلى أن خرجتِ

أخيراً.. عاد النشاط إليّ بسرعة مثلك تماماً! أخذتِ تمشين بخطوات سريعة حاولت مجاراتها.. يبدو أنها خطواتك الأصلية والحقيقية! إذاً فتلك الأيام كنت تتمهلين من أجلي! شكراً جزيلاً لك.. أقدر لك ذلك الآن فلقد تعبت وأجهدتني سرعتك كثيراً! وقفتِ وأمامك محلات عديدة لصائغي الذهب.. كنت تتأملينها بدقة وعلمت حينها بأنك وحتماً قد نسيتِ أمري اليوم!

نظرت إليكِ بتمعن و... ابتسمت ابتسامة واسعة! فأخيراً وجدتك ترتدين كل ما أحلم به وعلمت حينها وأخيراً بأن انتظاري قد شارف على الانتهاء!

أسرعت إليك وكم دهشتي حينما رأيتني أمامك مباشرة وكأنك ترينني للمرة الأولى أيضاً!

قلتِ لي بصوت عميق يناقض خفتك المدهشة: ماذا تريد؟!

أمسكت ذراعك بشدة قائلاً: كيف تمكنتِ؟ كيف تجرأتِ؟ كيف سرقتِ؟ كيف؟!

وكم صدمت حينما وجدتك تبتسمين لي وبخجل! قلتِ بهدوء: سرقت ماذا؟ قلبك!

صحت بكِ: ماذا؟! قلبي؟! سحقاً لك! هاتها.. هاتها!

وأخيراً نزعت ساعتي من يدك بسرعة تغلبت على سرعتك ووضعتها في جيب معطفي قبل أن تخطفيها مني ثانية.. صرخت بي بعدما أدركت ما حدث قائلة: أعدها لي.. أيها اللص أعدها...!

قلت ساخراً: كيف تنعتينني باللص رغم أني لا أمتلك مميزاتك أبداً! ثم أنكِ يجب أن تكوني ممتنة لي فلقد اكتفيت فقط باستعادة ما أخذتيه خلسة مني رغم أنني أستطيع أن أسلبك حريتك.. أستطيع سجنك! أنها ملكي.. ملكي أنا أيتها اللصة!

ما إن أنهيت حديثي حتى اكتشفت أنك قد اختفيتِ من أمامي! أخرجت ساعتي الذهبية ووضعتها على معصمي أخيراً.. كم افتقدناها كثيراً أليس كذلك يا معصمي؟!

أخذت أضحك وأنا أتذكر عبارتك الساذجة (سرقت قلبك!) كنت أراكِ حذقة رغم غضبي الشديد منكِ.. ولكن هذه كانت رؤيتي لكِ قبل أن تصل النهاية!

*****

أفأفة!

كان جريئاً جداً.. فبالرغم من أن لديه لثغة في النطق إلا أنه لم يتوقف عن الكلام ولا لثانية!!
هذا ما قلته بصوت منخفض لصديقي المبتسم بجواري..
نظر إليّ بنفس الابتسامة ثم عاد والتفت نحو البقية ثانية وكأنه لم يسمعني أبداً!! تأففت بامتعاض لتصرفه وأعدت سمعي للرجل الجريء من جديد..
كان يتحدث بصوت مرتفع ويضحك لنكاته التي يطرحها بأعلى صوت.. كان مستمتعاً جداً بخلافي أنا الذي شعرت بالملل الشديد رغم ذلك لم أستطع النهوض والمغادرة لوحدي..
نظر إليّ وهو في منتصف قهقهته قائلاً بصعوبة:
- لمَ لا تشاركنا الضحك يا رجل؟!!
تبسمت قائلاً: ما الذي تقوله! أنا فعلاً مستمتع!!
أبعد عينيه وأكمل حديثه بحماس غير آبه بإجابتي تماماً!!
تزحزحت قليلاً من على الكرسي الساخن تحتي! لقد تعبت الجلوس.. التفتّ نحو الطاولة التي بجوارنا ولمحت رجلاً سميناً يلتهم طعامه وحوله جماعة من الأشخاص، قلت لصديقي متمتماً:
- انظر لهذا الرجل!! كم هو جريء!! يلتهم طعامه بشراهة دون أن يخجل من الأشخاص حوله!!
كانت ردة فعل صديقي هي ذاتها دون أية إضافة أو اختلاف!! تأففت منه ثانية وأعدت النظر للرجل الشره ثم أزحت نظري عنه وألقيت ابتسامة صغيرة نحو النادل الذي كان ينظر إليّ مبتسماً..
لاحظت حينها بأن إحدى عينيه مصابة!! كان ذلك واضحاً تماماً، التفتُّ قائلاً لصديقي محاولاً أن أخفي شفتيّ بكفي الكبير:
- انظر.. انظر إلى ذلك النادل!! إن عينه مصابة.. أظنه لا يتمكن من النظر بها تماماً!! كم هو جريء!! لا!! بل إنه شجاع!! كيف يعمل في مجال يجعله يقابل أكبر عدد من الناس يومياً دون أن يرتبك!! فعلاً شجاع!!
كان اختلاف ردة فعل صديقي هذه المرة واضحاً.. فلقد رمش بعينيه مرتين!! ولكن لم أتأفف الآن بل كنت مشغولاً بسرقة النظر نحو النادل المبتسم!!
ولكن وفجأة دخل فوج كبير من الشباب جميعهم يحملون رؤوساً صلعاء وهالات زرقاء تحت أعينهم!!
كان منظرهم كفيلاً بانشغال جميع حواسي عن النادل!! والمرض قد شاركهم جلستهم وطعامهم وحديثهم.. لم يخفَ على أحد حقيقة منظرهم!!

قلت لصديقي بارتباك وأنا أضرب قدمه بقدمي من تحت الطاولة:
- انظر.. انظر.. يا إلهي إن جميعهم مرضى!! يا إلهي أشكالهم ملفتة للنظر جداً!! يا إلهي ما أشجعهم تصرفهم بطولي حقاً!!
وكالعادة تجاوزني صديقي دون أيّة ردة فعل جديدة.. أما أنا فأخذت أراقبهم بتركيز.. أحاول ألا أفوّت أي حركة بادرة من أحدهم!!
عاودت التمتمة لصديقي دون أن أبعد ناظري عنهم، كنت أحدثه عنهم من جديد، ولكن هذه المرة أحدثه لمجرد رغبتي في التعبير عن مدى تفاجئي بهم وليس للحصول على أي اهتمام أو ردة فعل من قبله بعد أن فشلت مسبقاً في الحصول عليها!!
قاطعني لحظتها صوت صديقنا المبتهج موجهاً لثغته الجريئة نحوي قائلاً:
- يا رجل ما بك؟!! لم لا نسمع صوتك أبداً!! انظروا له كيف كان طيلة الوقت يتمتم لنفسه فقط!! لمَ لا تحدثنا بشجاعة بصوت رجولي مرتفع! لا تكن جباناً!!
وأخذ يقهقه بشدّة وقد شاركه الجميع الضحك بعد أن حولني في أقل من ثانية إلى نكتة المكان!!
نظرت بارتباك وبوجهي المخنوق نحو صديقي الذي صدمني بردة فعل قاتلة!! وهو يشير إليّ بيده مغشياً عليه من الضحك مكرراً تلك الكلمات الساخرة لكن بصورة مبعثرة!! تباً له!! كم هو جريء!!

*****

حبر من السذاجة!

من بين صفوف الأقلام أمامي، سحبت بيدي حفنة، وضعت المال أمام البائع وخرجت أجري تحت المطر إلى منزلي الباهت، كانت هذه الرحلة أشبه بحدوث أزمة أقلام من حولي، فتحت الباب وخلعت كل شيء، نعم كل شيء!!
جلست بمواجهة تلك الأقلام لأفتتح كل هيجان في هذا العالم دون أن أصدر أي صوت، مسكت بإحداها وابتدأت بالكتابة.. كان حبره أحمرُ دامي، لم أكن أعلم بذلك ولم أكن أنوي ذلك، رميته جانباً وإذا بالتالي والتالي جميعها لديها دم واحد، لم أكن في حياتي كبقية الفتيات أجري خلف هذا اللون، كنت أجري فقط تحت المطر بعيداً عن أية قيود حولي، لم أبكِ لأرتدي الأحمر في طفولتي، ولم أعبث حتّى بأحمر شفاه والدتي الذي أفنى وقته ليجذبني نحوه، فلمَ الآن أكتب بالأحمر إذاً؟!!
ألأنّي أنفقت مالاً عليها؟!! ألأن رغبتي بالجري تتوقف حين توقف المطر؟!! أم لأنّي خلعت كل شيء وانتهى الأمر؟!!
كان هاتفي ملقى على الأرض في مكانه الذي اعتدت على نسيانه فيه، هذه المرة كنت قد نسيته لساعات فلم يأبه بي أحد فيذكرني به، رفعته لأرى الزمن ثم رميته مع الزمن لمكانه، كنت أريد أن أثبت استخدامي له وبأنّ وجوده مهم ومفيد، لا لأعلم الوقت فلم آبه بالوقت مطلقاً في حياتي، كانت أرقام الساعة متشابهة لديّ فلا تخبرني بحلول وقت النوم ولا وقت الطعام فلمَ آبه بها إذاً؟!! ألتخبرني بأنّي أزيد عمراً في مكاني وأنّي أتنافس مع كل جامد حولي أيّنا سيعيش أطول وأيّنا سيعمر بينما الآخر سيدفن تحت التراب، بل أيّنا سيذكره الناس؟!! هنا كلانا سيخسر!!
جمعت الأقلام رميتها في الدرج ثم رميت بجسدي العاري جواره لدقائق قليلة من التفكير ثم صوت طرقات الباب المتتابعة، أي زائر هذا الذي أخبره المطر عني؟!! قمت بتثاقل ألبس ثيابي من جديد وأنا أتمتم لنفسي لو كنتِ سترتدينها لمَ إذاً رميتِ بالأقلام جانباً في حين كان علينا رميها في مكانها في صفوفها أو بين يدي بائعها الذي سيرفض تحرير نقودنا من جديد، ربما كان السبب لعدم ذهابي إليه هو عدم رغبتي بالجدال معه في حضور المطر احتراماً لهطوله هذا المساء، فتحت الباب بعد أن كاد الطارق أن ييأس، ربما هذا ماكنت أرجوه فقط، وإذا به صبي صغير نحيل عارٍ فلمَ ارتديت ثيابي إذاً!! سألته ما الذي يفعله في مثل هذا الوقت في مثل هذه الأجواء!! أم أن كل من يجري تحت المطر يصل للباب ذاته!!
أجابني بطريقة آلية غير مبالٍ لحيرتي أبداً: أتشترين منديلاً؟!
- ماذا!! أتبيع المناديل الآن في مثل هذا التوقيت، من سيشتري منك؟!
ابتسم بسرعة، وقال: ألم تبتلّي من المطر!! جففي نفسك إذاً!!
ضحكت على طريقة إقناعه، قلت بسرعة أيضاً وكأني اعتدت على التنافس في كل شيء: ولمَ لم تجفف نفسك إذاً بدلاً من بيعها!! ثم ما أدراك بأني مشيت تحت المطر؟! سكت لثوانٍ ثم قال: لأني أريد أن يبتلّ داخلي، أهلكني الجفاف!

لحظة صمت كافية لإخباره بأنّي ندمت من حديثي هذا وخجلت من غبائي فخسرت منافستي من جديد، أدخلته ليجلس، كانت عيناه الصغيرتان أسرع من خطواته وخطواتي ومن ردوده أيضاً، كانت تبدو ذكية تنطق دون صوت وتفهمني قبل أن أرد عليها، صنعت لنا الطعام وأخبرته حينما كنّا نتناوله بأنه لم يزرني أحد منذ زمن بل ربما هو أول طارق لبابي لذا كنت قد استنكرت صوت طرقاته، كان يأكل بطريقة مهذبة لم أتوقع رؤيتها من صبي جائع وعارٍ مثله، كان ينظر لي ويهز برأسه وكأن ما أقوله قد اعتاد على سماعه، دون أن أشعر وجدتني قد أدخلت نفسي في منافسة جديدة حين محاولتي للفت نظره فلم أجد ما أحكيه سوى ما حدث لي مع الأقلام الحمراء، كنت أعلم أني سأخسر منافسة أخرى حينما فاجأني بانتصاري لأول مرة عندما نظر إلي باهتمام معبراً لي بأنها قصة مثيرة ليقول بسرعة كعادته: أشتريها منك؟!

- ماذا!! تشتريها!! كيف ستشتريها؟!

- توجد مدرسة قريبة من حيّنا، أبيعها على المعلمين هناك.

كانت إجابته تؤكد لي أنه يعاني من مشكلة في اختيار الجواب المناسب للسؤال المطروح عليه!! فها هو يخبرني عن أرباحه متجاهلاً للمرة الثانية سؤالي الفعلي!!

لم أرد أن أبدو ساذجة لذا قمت بتغيير نمط السؤال من وأين أرباحي أنا؟! إلى:

- كان عليك أن تلتحق بتلك المدرسة لا أن تبيع بها الأقلام!!

- نعم سأكون معلماً يوماً ما!

زالت كل شكوكي التي لم تراودني أصلاً، هذا الطفل يعاني فعلاً مشكلة في ربط الأسئلة بإجابتها، ألأنه متسرع في الإجابة!!؟ كان هذا ما تحذرني منه أمي دائماً الآن علمت كم هي محقة في حق التسرّع، أعدت عليه: أقول لك كان عليك أن تلتحق بالمدرسة!! كيف ستكون معلماً إن لم تدرس!!

- وهل قلت لك بأنني لم أدرس؟!

أحرجني ذلك الأبله ثانية، لم أعرف كيف يجب أن أرد، أأعتذر أم أشتري منه منديلاً!! هذا ما تعلمناه في طرق تكفير بعض الذنوب! قاطعني قائلاً: ألأنني شبه عارٍ، ألأنني فقير أبيع ما ترمينه ظننتني لم أتعلم، حسناً أعطني قلماً لأكتب لك ما تريدين!!

كدت أخبره بأنه عارٍ تماماً وليس شبه عارٍ كما يظن ولكني أغلقت فمي حتى لا أجرحه ثانية.

- لا!! لم أقصد ذلك ولكنّي ظننت...!، ثم صمت جديد، لمَ فتحت ذلك الباب اللعين؟!

أخرجت الأقلام من الدرج مددتها له قائلة: إنها من نصيبك!!

كانت جملتي تقول بأني تنازلت عن قيمتها وكأنه قد أخبرني مسبقاً بأنه سيدفع لي!! يا لهذا الاعتذار الذي لا نخدع به سوى أنفسنا!

نظر لها وقال ساخراً: حمراء!! يا لك من فتاة عاطفية جداً!

- لحظة واحدة!! كيف علمت بأنها حمراء قبل أن تجربها!!

ابتسم فقال: أخبرتك سأكون معلماً يوماً ما!

نهض نحو الباب ليفتحه وكأنه اعتاد فعلاً على العيش هنا، قال لي مع آخر نظرة ألقاها قبل أن يغلق الباب من خلفه ليرحل وحيداً ويجمعني بوحدتي مجدداً: أشكرك على الطعام وأتمنى ألا تنسي كيفية صنعه كما نسيت بأنك من أخبرني قصة أقلامي الحمراء هذه!
صوت ضحكاته كانت تخترق المكان رغم رحيله، لم أشعر بالغضب منها ولا من غبائي ونسياني الدائم، إنما أغضبني نسبه ملكية تلك الأقلام إليه فوراً وأمامي!! رغم أنه أنا من أعطاه إياها إلا أنه كان عليه الانتظار حتى يرحل ثم ينسبها لنفسه، هذا ما ظننته وهكذا تعلمت معنى تقدير الجميل، هو تذكّره أمام فاعله فقط لا للأبد!! خلعت ثيابي ورميت بجسدي على الأرض وكأن الزمن عاد إلى الوراء وكأن شيئاً لم يكن، تلك الخسارات المتتالية لم تحدث لي من قبل، فلم يستطع أحد أن يشعرني بسذاجتي كما فعل هذا الصبي في ساعة واحدة فقط!! أو ربما أقل من ساعة، لا أعلم فلم يعد هاتفي المرمي على الأرض مكانه من بعد خروجه!!
سألت نفسي سؤالاً موجهاً له، لم تخبرني يا ترى أيّ نوع من المعلمين ستكون؟!
صرخت بغضب عالياً: تباً كيف سأعرف الوقت الآن!

*****

الأحذية..

في هذه الحياة كل شيء قصير حتى أنا لا أمتلك طولاً لبدني القصير!
أظن بأنني آمنت بهذه الفكرة حتى بت ما إن أقع في مشكلة أكتفي فقط بانتظار مضي الوقت لتنتهي وتتلاشى.
أنتظر ببرود وبدون عجلة أو توتر، فالوقت قصير جداً فلمَ العجلة والتوتر؟! ولكن سؤالاً واحداً يدور في ذهني دائماً.. هل إذا آمن الإنسان بفكرة داخله تأثر شكله الخارجي بها؟! فلقد لاحظت بأنني دائماً ما أرتدي القصير من الثياب وشعري الضعيف ما إن يطول قليلاً حتى أقصره! هل هذا بتخطيط مني أم أنه لا إرادي؟! أضعت وقتي القصير بمراقبتي من أخمص قدمي حتى وصلت عيناي إلى عينيّ.. أراقب كل حركة أقوم بها وكأنني أجري بحثاً عليّ! بحث لفكرة اخترعها مخيخي وطبقها جسدي كأي أمر يصدره عقلي عادة..
لطالما كان هذا المخ الصغير هو الزعيم والحاكم والآمر على هذا الجسد الناقص! فكيف يكون الجسد كاملاً وزعيمه ناقص وأقل ما ينقصه الحكمة؟! كنت أرتدي حذائي وأنا أفكر بهذه التناقضات لاحظت حينها بأن حذائي قصير أيضاً! أسرعت أتفقد بقية أحذيتي وصُدِمتُ عندما وجدتها جميعها مثيلةٌ للسابقة! يبدو أنني لم أرتدِ قط حذاء بكعب عالٍ رغم أنني أفتقر للطول! ولكنني أخيراً وجدت الإجابة عن سؤالي الدائم!! فالإنسان قد لا يتأثر بفكرة آمن بها بقدر ما يتأثر بفكرة أراد هو طيلة حياته أن يؤمن بها!! ربما هذا خداع لذاتي! فوقتي القصير كما زعمت استطاع بسهولة أن يضم بجوفه مشكلات طويلة دون أن يطلب إمداده بأية دقائق إضافية!! فحياتي طويلة بما يكفي لتحصل كل مشكلة على الراحة وتمتد أكثر حتى تستوطن في أعماقي لتشكل في نهاية الأمر جزءاً مني! كل شيء هنا طويل سواي كان هذا الطول من حولي حتى فالدقائق والثواني تضغط على جسدي القصير العاجز حتى عن التقاط بعض أنفاسه ليستمد بها البعض القليل من الطول هو الآخر!! فتلك المشاكل بضخامتها هي السبب في قصر ووهن جسدي فهو ليس قادراً على حملها وعلى النمو في آن واحد!!
التفت نحو المرآة ونظرت مباشرة إلى وجهي ولاحظت بسرعة حاجبي الطويلين!! أبعدت ناظري حينها بابتسامة (طويلة) ساخرة!

*****

الحجرة الراقصة!

تدرج الألوان غير مناسب تماماً! أظن أن عليك القيام بإعادته بشكل مختلف.. ختمت حديثها بصوت طرقتين متتاليتين بكعب حذائها لتتجاوزه متأملة باقي أجزاء الحجرة.. كان يقف بأدواته وقد تحجرت عيناه في مكانهما وبدا عليه البؤس والغضب في آن واحدة.. رمى بالفرشاة أرضاً وتوجه نحوها قائلاً بحنق: تدرج الألوان الذي تتكلمين عنه أنت من اختاره.. سيدتي!!

رفعت حاجبها بسخرية قائلة: آوه.. حقاً! حسناً فليكن! كنت أراه مناسباً الآن أراه بصورة مختلفة.. قم بإعادته!

رد بصوت أكثر غضباً: إنها المرة المئة التي أقوم بطلاء الحائط اللعين هذا!

- كفى لا تجادلني.. إنه عملك أنت ليس عملي!! ثم أني سأدفع لك!! لذا افعل ما أخبرك به فقط!!

توقف مرة ثانية ونظر إليها بعينين حاقدتين ثم أردف قائلاً: حسناً.. وكيف تريدينه الآن.. بأي لون؟

- لا أعلم أشعر بأني عاجزة عن الوصول لما في مخيلتي.. أتعلم أظن أن المشكلة ليست في الألوان، ربما هي في الرسمة ذاتها.. ما رأيك؟!

كانت تنظر نحو الحائط وهي ترمي تساؤلاتها نحو تلك النيران المتفجرة بالقرب منها.. رد بعد دقائق قائلاً: لقد قمنا بتغيير الرسمة ثلاث مرات أيضاً! يبدو أن ذاكرتك لا تتسع لكافة ما يجري حولها سيدتي.

طرقت الأرض بكعبها من جديد والتفتت إليه بعد أن خطرت لها فكرة حديثة: اهدأ واسمعني جيداً.. الحجرة هذه صغيرة.. من البلاهة اختيار رسمة لطيور هنا! كان يجدر بنا اختيار رسمة أكثر حيوية من ذلك.

- لقد كنتِ متحمسة جداً للطيور! حسناً ما الذي ترشحينه الآن؟!

- ما رأيك برسمة للهنود الحمر؟

- ماذا! أين الحيوية في الأمر؟! إنها فكرة غريبة!

- امم.. دعهم يرقصون مثلاً.. ما رأيك؟ أظن أنها فكرة رائعة.

- لا أبداً أبداً.. دعينا نستبدلها بشيء أجمل!

قاطعته: لالا.. لقد قررت.. هنود الحمر يرقصون..

آه يا للجمال!

صاح بها: آه يا لتعاستي.. إنها ليست سهلة الأداء أبداً.. سأموت إن طلبتِ مني تغييرها بعد ذلك.

ردت بصوت غير مبالٍ: أحسن القيام بها ولن تضطر لتغييرها إذاً.

ابتسمت بسخرية ورحلت خارج المكان بينما هو رمى بالفرشاة نحو الحائط بغضب بعد أن تلقفها من الأرض لتوه.. وأخيراً قام بطلاء الحائط باللون الأبيض ليعاود تلوينه والرسم عليه من جديد في الغد.

مضت عدة أيام قليلة ليرتدي الحائط المتجدد نصف حلته الراقصة حينما جاء صوت كعبها الرنان متجهاً نحو الحجرة الملونة.. توقف الصوت الموسيقي بعد أن صاحت متفاجئة بكامل قوتها:

- يا إلهي.. يا إلهي.. لا أصدق.. هل ما تراه عيناي حقيقة!!

كان الرجل قد تيبست قدماه في مكانهما واتسعت عيناه بصورة كبيرة وفرشاته الملطخة موجهة بعنف نحو وجهها المتفاجئ وكأنه يقوم بإرسال تهديدات صامتة لها!!

اقتربت منه أكثر وهي تضع كفها على شفتيها دون أن ترمش عيناها ولا لمرة واحدة..

أردفت قائلة: أنت.. أنت.. رائع!! لا أصدق كيف استطعت أن تخرج ما في مخيلتي إلى أرض الواقع!! محترف.. محترف حقاً!

لم يتغير أي شيء في ملامحه سوى حركة يده المتصلبة والتي أنزلت الفرشاة نحو الأرض!! قالت له بحماس غير مكترثة لصدمته النفسية: أخبرني أخبرني.. متى ستنهي النصف الآخر؟ هل سيستغرق مدة طويلة؟

كانت تتحدث وهي تتحرك بعشوائية.. تقترب من الحائط وتبتعد من جديد.. وكفاها الضائعان يتنقلان بين وجهها وشعرها بصورة سريعة.. أكملت قائلة: ماذا بك.. تكلم؟!

قال بعد ثوان وكأنه عاد إلى وعيه فجأة: أوه.. نعم.. لا أعلم.. متى سأنتهي منها.. هل.. هل حقاً أعجبتك؟!

- يا إلهي! حتماً أعجبتني.. آه لقد كدت أيأس منك ولكنك أخيراً نجحت.. أحسنت.. رائع.. يا إلهي كم هي جميلة.. رائع رائع!

تغيرت نظراته فجأة.. ابتلع ريقه وصلب ظهره ليعدل من وضعية وقوفه وبدا بصورة مختلفة عما كان عليه قبل قليل! قال بصوت جدي وواثق: حسناً إذاً.. أريد أجري كاملاً حتى أملها لك!

اختفت حركتها العشوائية وتوقف جسدها تماماً باستثناء رأسها الذي التفت نحوه بصورة آلية قائلة بصوت متقطع بطيء: نحن لم نتفق على ذلك.. سأدفع لك حين تنهي عملك كاملاً!

رد بابتسامة عنيفة: لا.. ادفعي لي أولاً.. فنحن لم نتفق أن أستغرق على هذا الحائط ما يقارب الشهر.. وأنا أطليه لعدة مرات!

قاطعته بعصبية: إنه عملك.. عملك!

- ولأنه عملي أريد مالي.. لم يبق لدي ما أنفقه على نفسي حتى نهاية هذا الشهر.. إنها مشكلتك!

سكتت قليلاً لتأخذ نفساً عميقاً ثم قالت بهدوء: حسناً حسناً.. سأدفع لك.. رغم أنها ليست مشكلتي تماماً كما قلت قبل قليل.. ولكن تعاوناً مني وتعاطفاً مع وضعك الحالي سأدفع لك.. أخبرني ما نصيبك؟

نظر إليها ثم قال بسرعة: أمهليني خمس دقائق فقط لأحسب لك أجري..

رفعت حاجبيها وقالت: لك ذلك.. ولكن أسرع.. أريد منك أن تنهي حائطي بأسرع وقت ممكن.

ابتسم وهو يومئ لها برأسه موافقاً.. لم تكمل الدقائق المذكورة سيرها.. فلقد قاطعها بحماس وهو يقدم ورقة صغيرة نحو السيدة المبتهجة الحالمة في الحائط.. التفتت إليه تنظر باتجاه الورقة قائلة: أوه.. ما هذه السرعة! حسناً أتمنى أن تؤدي بقية عملك بذات السرعة.. هاتها دعني أرى.
اتسعت عيناها وتغيرت النبرة الساخرة إلى نبرة مفزوعة: ما هذا.. ما هذا.. إنه مبلغ كبير.. لم نتفق على ذلك أيضاً!
- صحيح.. وذلك لأننا اتفقنا على حائط واحد.. بينما ما حدث في الواقع هو أنني رسمت الحائط بصورة كاملة لمرتين ولثلاث مرات بصورة غير كاملة تماماً.. وأخيراً هذه المرة الثالثة والأخيرة لرسمة كاملة أيضاً.. إذا فمجموعها كلها ست مرات طليت بها الحائط.. إضافة إلى تكلفة الأدوات والأصباغ..
ختم حديثه بابتسامة طويلة منتظراً بشوق ردة فعلها.. قالت بحنق: حسناً سأدفع لك.. ولكن أريد منك إنهاء هذا الحائط خلال يومين فقط!
- لك ذلك!!
أخرجت النقود ودفعتها بقوة تجاهه.. بينما تلقفها هو بسرعة والابتسامة قد اتسعت أكثر من السابق.. خرجت من المكان بعد أن ألقت نظرة أخيرة نحو الحائط وكأنها تحاول ان تهدئ نفسها من خلاله.. وقام هو وبسرعة بالتقاف فرشاته من جديد مقبلاً على الحائط بابتسامة سعيدة وهو يغني: تعال إليّ يا عزيزي تعال.
لم تشارف المدة على الانتهاء حتى كانت السيدة المتحمسة تحتل منتصف الحجرة..
صرخت بسعادة:
- آه.. كم هو جميل.. أكاد أبكي!
ابتسم لها وهو يلملم حاجياته ليغادر نهائياً من هذه الحجرة الملونة.. قال لها وهو بجوار باب الخروج: من الرائع أنها أعجبتك.. وأخيراً انتهى عملي.. سأرحل الآن..
قالت بسعادة: نعم نعم.. شكراً لك حقاً.. شكراً من أعماق... ماذا.. ما هذا!
تغيرت نبرة صوتها بسرعة وعيناها تتوجهان نحو أسفل الحائط وهي تشير بإصبعها وبغضب تجاهه.. أردفت بسرعة: ما هذا! ما الذي فعلته أيها الأحمق!
رد ببرود ساخر: ما الذي تعنينه.. لم أفهم!
صرخت به بقوة: كيف تجعلهم يرتدون هذه الأحذية النسائية!!أتسخر مني.. كيف! إنهم حفاة! تباً لك!
ابتسم بسخرية: أوه.. أتقصدين الأحذية.. آه أنت محقة.. كيف لي ألا أنتبه لهذه النقطة.. ربما صوت كعب حذائك قد أثر عليّ دون أن أشعر!
صرخت به: تباً لك.. أتهزأ بي.. قم بإصلاحها الآن.. أتفهم!

رفع حاجباه قائلاً: أعتذر منك.. لقد أنهيت عملي إن لم يعجبك فلتجلبي أحد غيري.
صرخت من جديد وهي تقفز بصورة خفيفة: تباً لك.. أنت أفسدتها.. أصلحها الآن.. لن أسمح لك بالخروج.. ولن أجلب غيرك ليفسدها لي أكثر.. هيا هيا أصلحها لي.
ابتسم بسرعة قائلاً: أوقفيني إذاً.. وجرى مسرعاً خارج الباب بينما هي لم تعِ ما حدث إلا بعد ثوان قليلة.. جرت خلفه إلا أنه كان قد سبقها نحو الدرج الخارجي للمبنى.. أخذت تصرخ محاولة اللحاق به دون جدوى.. خلعت حذاءها لتقذف بكعبها عليه في منتصف الطريق إلا أنه استطاع تجاوزه.. جرت ببطء وبحذاء واحد في قدمها.. وبسرعة وقوة أكبر خلعته هو الآخر ورمت به تجاهه.. إلا أنه هذه المرة توقف واستدار نحوها ليلتقط حذاءيها بسخرية وصوت ضحكاته العالية ترن في أذنيها.. التفت من جديد ليتابع الجري بعد أن أشار إليها مودعاً لها بحذاءيها.. تاركاً إياها خلفه تصرخ في منتصف الطريق وتقفز بقدمين حافيتين.. كما الرقصة في حائطها.. للهنود الحمر!

*****

روح الشيطان!

(إهداء إلى من داسني ليعبر، قتلني ليحيا، وتحية لدمائنا الواحدة)
عندما تدرك تفوقك على شيطانك دائماً ترى بعدها مدى إتقانك للغرور، للحديث بصوت عالٍ ومتعال، للتلفظ بالألفاظ الصعبة المستحيلة المحرمة عليك، لاختلاق المشاكل وابتكار كل جديد في إزعاج الغير، للظلم ورد الصاع بعشرات الأصواع، وأنك تتقن ضرب من أمامك ثم البكاء منه.
تتقن الانجراف دائماً عن الحق والدخول في المتاهات ثم الخروج منها بالمركز الأول.
تتقن التلاعب بالكلمات والكتابة بألسنة الآخرين.
تتقن ارتكاب كل الممنوعات والهروب من العدالة بعدها.
تتقن العيش لنفسك وسرقة حياة من حولك أيضاً.
تتقن كل الكبائر في كل الأديان وكل ملذات الأرض.
تتقن الفوز بأحقاد الغير واصطناع القوة فالكبرياء ثم الدموع عند حاجتك.
تتقن حتى التخطيط أثناء نومك والتنفيذ حين الاستيقاظ؛ لتجد أنك قد عشت كثيراً دون أن تتعايش مع أحد، وتذوقت الكثير باستثناء الراحة، وتجردت من كل خطر تخشى وجوده غافلاً فيها عن وجودك!!
وأن عمرك ليس سوى أعداد متراكمة من المعارك والضحايا حاملاً معهم أحلامك بالسلطة والقوة اللامتناهية، وأمنياتهم لك بالموت صامتاً ولو لمرة واحدة!!
ثم تكتشف متأخراً بأنك متقن لكل شيء سوى الخوف من ذاتك التي أحرقتها أنت ذاتك، لتُنهِي بذلك عمرك الطويل بغتة فلا تبصر ولا تُبكَى!!

*****

إنها ساعة.. دون النصف!!

حينما رأيت ذلك الشال الأزرق الملتف حول ذراعها ليخفف ألم عظامها القادم مع نسمات الهواء الباردة.. علمت حينها بأن الوقت سريع جدًا!! سريع لدرجة تمنعُ فيها من رؤية أو بالأصح من ملاحظة الزمن وتدرّج الأحداث حتى وصولنا لمرحلة الشال الأزرق!!
كانت والدتي امرأة كسائر النساء، تعمل فوق طاقتها، تصنع من الصوف أجساد متراكمة لا تسكنها روح!! تصنعها لمجرد الاعتياد على صنعها فقط!!
تتألم بصمت وحينما تصرح بألمها يكون ذلك عبر تأوهات صغيرة يتخللها عبارات شكوى متوارثة بين كبيرات السن، لم أنتبه ولا لمرة بأن أمي النشيطة هي إحدى كبيرات السن!!
كانت صدمة كبيرة لي! صدمة مؤلمة! صدمة واقعية ومنطقية جدًا مسببها ذلك الشال ذاته!!
أثناء هذه اللحظات المتألمة لامسني صوتها قائلا:

- بني.. أعطني نظارتي.. إنها بجانبك على الطاولة.

كان هذا الطلب عبارة عن نكتة ساخرة موجهة لي!! فلطالما أعطيتها نظارتها ولكن هذه المرة الأولى التي أنتبه فيها لشكل إطار النظارة الطبية، لأول مرة أرى زجاجات عدساتها الشفافة والسحرية!! فهي بالنسبة لي تغير صورة الواقع أمامي بمجرد مقاربتها لعينيّ!! رغم هذا فوالدتي لا تستغني عنها أبدا!! بالفعل هي سحرية!!
صرخت بي قائلة:

- بُنيّ ما بك؟!! لماذا تقف هناك؟!! أحضرها لي بسرعة!!

اقتربتُ منها مسرعًا وأعطيتها لها.. وكم صُعقْت حينما رأيت كفيّها يرتجفان باتجاهي لتمسك بالنظارة!! ما هذا!! ما الذي يحدث!! كيف لجميع هذه الأدلة الإنولاد معًا الآن!! وكم هي شبيهة بالتوائم السيامية!! حيث يصعب عليّ فصلها أو إبعاد أحدها بأي عذر وهمي..
من أجلي أنا فقط!!

رفعتُ رأسي متنهدًا نحو الساعة على الجدار وهي مشيرة بسبّابتها إلى الحادية عشر ليلًا..
كان قد مضى على سرحاني الحزين بل المفجوع نصف ساعة!!! كيف
لذلك أن يحدث؟! كيف للوقت أن يهرب منّا وبكل هدوء خارج عن إرادتنا بإرادتنا!! حينما
عبرت بصوت مرتفع عن الساعة تفاجأت والدتي كثيرًا ورمت بكتابها مسرعة للداخل حتى
تنام! وهي تتمتم قلقة بأن الوقت تأخر كثيرًا!! وكأنها باستعجالها قد تأخرت على أحد
أحلامها الذي اتفقت معه على موعد مسبقًا!! إنها تنام لأنه يجب أن تنام في زمن محدد فقط!
فلا مكان للنعاس لديها!!
رأيت الشال الأزرق يتدلى.. فوق الأريكة ينتظر ذراع والدتي غدًا، ابتسمت له! لا أعلم لمَ!!
ولكن شعرت بأنه يشبهني تمامًا!! فهو يلاقيها يوميا، يجالسها ويصاحبها ولكن كل ذلك
بصمت شديد وبجهل أشد وبقلّة ملاحظة من كلينا بعبور الزمن وبجميع أحداثه!!
أمسكته بقوة ولففته حول عنقي هامسًا.. (أرجوكَ لا تنم! وشاهد جميع ما يحدث حولي..
معي!!).

*****

ولأننا لعبة فبلا منطق!

كما احجار الشطرنج نحن.. تحركنا قوة خارجية دون ان تدب بِنَا الحياة.. لطالما حكى لي والدي عن التاريخ وفي كل مرة يكرره لي ارانا أكثر بؤسا عن السابق.. نزداد بلاهة وتزداد مقابرنا إعمارا بخلاف مساكننا.. وفي كل مرة أوجه السؤال الى نفسي بدلا من والدي.. اي الم يحمله التاريخ حتى جعله يتغلب على الزهايمر وينتصر بحضوره في ذاكرتك!!؟

كنت اكتب أبحاثا عن العدوى وكيف لتلك الأمراض ان تتوارث حينما حكى لي عن مجزرة حديثة بسيناريو مسروق وابطال مجهولي الهوية لا تختلف عن التاريخ الا بالتواريخ فقط!! مجرد ارقام انتشرت حولنا حتى بتنا لا نستنكر أعداد المغدورين ولا نكترث لهوياتهم...!

كان يسرد لي بحزن خالطه الاستسلام انتقلت لي مشاعره من نبرة صوته الخافتة ونظراته السارحة ليس ببعيد.. توقفت لبرهة عن الاستماع وعن الكتابة وعن التنفس ايضا فها قد بادر ذهني سؤال جديد.. أليس من المنطقي انتقال المرض بالعدوى؟! إذا لماذا استهلك وقتي بالكتابة عنها!! بينما من غير المنطقي عدوى المشاعر!! كان يجدر بي اعتبارها أحد العجائب السبعة في هذه الحياة.. ان تبتسم لمجرد رؤيتك لوجه باسم وتضحك لسماعك صوت ضحكاته.. ان تشعر بالنصر ثم الخيبة في كل مرة تقرأ بها التاريخ!

ان ينتقل إليك شعور شخص اخر في عالم اخر من كلماته او كتاباته دون وجود بكتريا لا ترى بالعين المجردة تحملها إليك!!

تشعر بحزن غيرك وسعادته.. تشعر وللحظة بأنك بشري ولست بحجر شطرنج لتعود بعدها لمحلك على طاولة اللعبة بلا خيار بلا منطق بلا حياة..

يقاطعني صوته صائحا انا الفائز بلا منازع!!!

تنفست خارجة من بركة الأفكار أبحث على ماذا يهتف.. انه يخادع نفسه بالشطرنج من جديد!!

*****

وَجَعْ!

حينما لا نرغب بالحديث ذلك لأن الحديث قد غلبنا، قد ضج بداخلنا وتزاحم ثم تعثر بنفسه، نعلم حينها أن الحديث مؤلم فنتألم صامتين..
كان الطقس متعكراً كما الأجواء حولهما فبحلول المساء ازداد الوافدون للمكان وتراكمت الأدخنة المنبثقة من الأنوف والأفواه وتداخل ضجيج متابعي المباراة بضجيج أحجار نرد الطاولة متنقلة بين الأصابع لتطير وتسقط حاسمة بذلك نتيجة اللعبة دون جري خلف الكرة وبلا حكم ولا معلق ولا جمهور إنما بالحظ فقط! إلا أن مشاجرات نهايتها لا تقل شدّة عن تلك.. قد يكون الأمر بعيداً عن المنطق ولكنه متوقع طالما كان الرجل أحد الأطراف فكيف بكونه جميع الأطراف إذًا.!!
التفت من حوله وصرخ بذلك الصبي ليحضر له مزيدًا من الشاي ثم دفع بظهر كرسيه الخشبي إلى الخلف لينطق بعد دقائق الصمت تلك:
- إن الحديث قد يمدك ببعض الراحة فلمَ لا تجربه!؟
- لأنني لا أتقنه...!
رفع حاجبيه بتعجب قائلا:
- أنت!! أنت لا تتقن الحديث!! إذًا أخبرني من الذي يتقنه!!
رد بابتسامة صغيرة:
- ربما كنت أعني عدم إتقاني الصبر عليه.
- أو ربما كنتَ تعني عدم إتقانك الصبر على نتائجه!!
ضحك الاثنان معًا بوتيرة واحدة بدت وكأنه متفق عليها مسبقًا رغم اختلاف المعنى من خلفها، ثوان قليلة من الصمت وأردف من جديد:
- هيا أخبرني ما بك.. ما الذي يصعب عليك قوله!
- أتريد حقًا أن تعلم.؟ بل أقصد أتتفهم حقًا ما بي!
- دعنا نجرب لن نخسر شيئا...!
- وربما قد نخسر!
- ما الذي سنخسره؟! أتقصد وقتنا أم الجهد الضائع؟!
- لا.. لا هذا ولا ذاك.!
- ماذا إذا؟!
- بعضنا، أخوتنا، صداقتنا، الباقي من محبتنا.!
- ماذا!! ما الذي تعنيه!!؟ ما الذي فعلته وماذا حدث!؟
ضحك بهدوء وقال:
- أراك قد انفعلت قبل أن تفهم شيء!!
- حديثك ونظراتك تفسران ارتكابك لأمر سيء وهذا ما يقلقني!

قال بسخرية:
- هه!! ولأننا نقلق، ننفعل، نظن ونفسر قبل أن نستمع ونفهم، أنا صامت!
- لكنك الآن مجبر على الحديث وليس بخيارك الصمت!
رد باستنكار: ولمَ أنا مجبر؟!
أجابه بانفعال أكبر:
- لأني أريد حالاً أن أعرف!
- أوَتجبرني لرغبتك بالمعرفة فقط!
- نعم أجبرك.. فليس من حقك أن تصمت وهناك أمر سيء قد حدث!
- بل من حقي الاختيار بين السلم والحرب!
- أنانية منك أن تختار راحة بالك مقابل مواجهة أخطاءِك!!
- اهدأ ما بك!!؟
- لا لن أهدأ لأنها الحقيقة، أي حق يجعلك تتخذ القرار بمفردك دون الطرف الآخر فقط لخوفك منه من مواجهته، من تحمل قراره عليك!؟
- عن أي ذنب وأي خوف تتحدث!؟
نهض بغضب دافعًا بالكرسي بعيدًا صارخًا:
- لا حديث بيننا بعد الآن ودع أنانيتك وصمتك يحلان محلي ليسمعنك!
اختفى الضجيج من المكان فجأة واتجهت الأعين جميعها إليهما للحظة بدا المكان وكأنه صورة ساكنة خالية من الحياة..
رد بهدوء ساخر أحيا المكان من جديد:
- حسنًا، ولكن لتعلم قبل رحيلك أني قد غفرت لك سرقتك من أموالي!
زال صوته الهادئ وحلت التفاتات سريعة وتمتمات غير مفهومة محله نهض مبتسمًا بأسف قائلا:
- لا تعتذر فلا حديث بيننا بعد الآن أوليس كذلك!؟
اختفت الابتسامة الواهنة عن وجهه واستدار بجسده ليرحل تاركًا تلك العقول تتضارب لتفهم.! تاركًا كل حديث صامت خلفه.

*****

كعيني القطة!

باهتةٌ كجدران الحجرة، كسريرها وستائرها وحذائها المهترئ، ككل شيء ملقى حولها كانت ملقاة أيضًا بلا حراك وبلا أي محاولة للحراك حتّى، حينما طرق الباب كإجراء شكليّ لا أكثر دخلَ وهو عالمٌ بأنه لا داعي لانتظار الإذن منها، اقترب من النافذة ليزيح الستائر عن أشعة الشمس حتى ترافقه في مكانه، وكأنما يحتاج لمن يرافقه في كل مرة يكون فيها أمامها! التفت نحوها ابتسم وجلس أمام سريرها، لم تنظر إليه إنما اكتفت برفع جسدها قليلًا كردّة فعل على مجيئه، تنحنح قبل سؤاله المعتاد:

- وكيف أنتِ اليوم؟

- أأخبرتهم برغبتي الخروج من هنا؟

- نعم فعلت...

صمتَ لثوانٍ ثم أردف: لا يمكنك!

صمتٌ آخر قبل أن يضيف: أعني ليس الآن، ليس بعد!

كان التوتر قد صاحب صوته بينما السكون ظلّ مهيمن عليها، ولم يرحل الصمت بعد! دقائق لتنظر إليه أخيرًا ابتسمت وقالت:

- لمَ تنظر إليّ هكذا؟! وبمَ تفكّر؟ أو!! إلى ما تنظر تحديدًا؟! ألجلدي الأجعد؟! ليس هو الذي اعتدتَّ عليه سابقًا أليس كذلك؟! أم إلى تلك الدهون التي دعوتُ كثيرًا لأتخلّص منها قبل أن تتخلّصَ منّي!!

ضحكت بوهن ثم أردفت: أنظر!! ها أنا بلا دهوني ولربما هي من اختارت الرحيل حينما أيقنت أنه لا فائدة من البقاء في جسد راحل قريبًا كجسدي!!

- كفى، اصمتي!!

ضحكت ثانية قائلة: أم أنك تنظر لعينيّ التي باتت كعينا السمكة!! فأين تلك الشعيرات من حولها!!

- كلّا، عيناكِ كما عينا القطة، جميلة! ألا تعلمين بأن الجاذبية بين عينيّكِ لا تحت أقدامي!؟

ضحكت بوهن ثم أردفت:

- وأنت؟!

- ماذا بي؟

- كماذا عينيك حتى تصبران النظر إلي؟!

- عيناي كمرآتك، تحكي لك الواقع!

ضحكت وأبعدت وجهها عنه، كانت تسعى لإخفاء خليط مشاعر الضعف والأسى مع قليل الخجل أيضًا، قالت بعد دقائق:

- أتعلم، سمعت بالتلفاز أحدهم يسأل آخرًا ما الذي بعد الموت!! أجبني أنت أولا ما الذي بعده؟!

- كفى أرجوكِ!!

- ألا ينتابك الفضول لمعرفة ذلك! أتدري بماذا أجابه؟!

- لا، لا ينتابني الفضول، لا ينتابني سوى الرغبة بالصُراخِ حتى تصمتي!!
تابعت حديثها وكأنما لا تسمع أحدًا سوى صوت عقلها العاجز:
- لقد قال له أنا لا أعلم ما بعده، ولكن سأخبرك بما ليس بعده، بما يموت بعد الموت، الحزن والقهر وحتى الظلم والفقر، لا ألم بعده ولا مرض حتّى!! فما الحاجة إذًا لعلاج مرّ يقضي على حواسك وينهيها!! كان جوابه يخبرني بأن للموت جمالاً أيضا، لكن!! لمَ لا أريد الموت رغم ذلك!!
عيناها الخائفتان كانتا تبحث بتضرّع عن شيء ضائع في وجهه حتى قاطعها:
- اللعنة على التلفاز!! أخبرتك بأنك لن تموتي قبل موتي!!
غضبه وصراخه كانا كفيلان بإراحتها، قالت بعد ما رأته يحاول إلمام نفسه مجددًا:
- وهل للغضب والصراخ أن يزيلا الخوف عن نفسي بدلًا من إدخاله عليّ!! كم هذه الحياة غريبة!! لا شيء بات يسير كما يجب أن يكون!
- آوه!! نعم صحيح!! ولهذا جعلتِ الموت مقدسًا قبل دقائق!! لن تموتي حتى وإن التهمكِ المرض!
- أتثق بنفسك إلى هذه الدرجة؟!!
- لا، أنا لا أثق بنفسي، إنما بكِ!! فها أنت حيّة أمامي من بعد ما التهمتكِ النار!! كيف إذًا بمرض!!
- وها هي عيناك تزلّان بما تراه بي! وتذكّراني بأنّي مشوهة!
- لا بل تذكرانك بأنك قطّة! فلا تخشي الموت إذًا لم يحن وقته بعد!!
ضحكت عاليًا وبصخب أصمّ سمعه عن طرقات الباب المتتالية قبل أن تدخل سيدة كبيرة السن تمشي بصعوبة نحو مكان جلوسه قبّلت جبينه وجلست بجواره بعد أن غطّت ركبتيه المرتجفة وكفيّه الباردة بشالها البنّي، قالت له بتودّد:
- ما الذي أتى بكَ يا مرآتي إلى هذه الحجرة؟! ولوحدك؟!
ابتسم ليحرّك تجاعيد وجهه الساكنة عن مكانها قائلاً:
- لستُ بوحدي!! فها أنا ذَا والشمس وعيناكِ هنا، من جديد!!

*****

رَائِحة ورُوحْ..

أريد منزلاً صغيراً ملوناً، أريد شرفة من الخشب برائحة البحر الرطبة ممزوجة بعبق القهوة السوداء التي لم أتذوقها قط في حياتي!
لأنني آمنت بها غيبًا دون أن أطلب المزيد لأحقق اليقين، أريد أن أضعها أمامي لأتنفسها ثم أسكبها باردة على الرمال حولي.. فلخليط الروائح روح، حكاية وحياة!
أريد قصة حب ناقصة تشبهنا فالكمال ينهينا ويقتلنا، فهو لم يخلق لنا!
أريد جناحين كبيرين وثلاثة قلوب ومائة عين لكن دون أن امتص الدماء مثلها، لأحوم حول العالم لا حولي! لأعيش الحياة بكل جوارحي فلا أكتفي برائحة الرمال ولا بالكتابة على الورق!
مثلما تكتفي هي بدمائي لتحيا فقط!
أفلأنني ناقصة أكملّها ولأنها كاملة تسلبني دمي فلا تضيف لي شيئاً سوى آثار وخزاتها على جسدي!
أريد ذلك النقص الذي يجعلها كاملة في نظري، أي نظريّة هذه!
سحب من يدي فنجان القهوة واحتساه بسرعة ليضيف بعد أن أعاده إلى كفيّ خالي:
- اعذريني لم أفهم أيّ شيء أعيدي عليّ ما قلتي من جديد؟!
- كنتُ أقول ماذا أطبخ لك على الغداء!؟
هذا السؤال الصغير كان كفيلاً بتحريك جسده المائل لينتصب في مكانه بتركيز حتى يقول:
- ما رأيك بحساء الفطر؟ أو ربما فطائر اللحم أفضل!! منذ مدة طويلة لم تصنعيها!
- آوه صحيح!! منذ أسبوعين فقط!
ابتسم لي ثم خرج فاختفى، نظرت إلى الفنجان البارد بين كفيّ، كان ما يزال ممتلئاً بالقهوة، شكرًا لله!! فأنا لا أجيد الطبخ أصلا فكيف لي تخيل صنعي لفطائر اللحم تلك!
ضحكت لنفسي على نفسي، رفعت الفنجان نحو شفتيّ للمرة المائة من بعد توقفي عن عدّ المرات في حياتي، أرفعه إليها فأتجمد ثوانٍ داخل صراع بينهما فهو ثابت وهي ترتجف بسرعه ثم أنزله إلى مكانه من جديد أتنتصر هي ثانية؟! أقصد مجددًا؟!
لا أعلم ما المخيف في تذوق ما بداخله إلا أنني علمت بأن الخوف قد يجعلنا ننتصر قبل دخول المعركة أحيانًا!!

نظرية أخرى لم نسمعها عن أولئك الباحثين فالحياة عنها تحت شجر التفاح، لذا لم يشرحها لي معلمنا فباتت لي أصعب من تلك النظريات التي شرحها سابقًا هو ونسيتها أنا فورًا فلم أفهم سوى أن النظرية لا تحتاج إلى معلم ولا لقلم، تحتاج إلى روائح إلى صور إلى حياة متحركة أمامك، إلى عينيك المفتوحتين وفمك المغلق، إلى النقص الذي يبهجك لا عن الكمال الذي يفنيك!

صوت أمي القادم أعادني لها حينما قالت:

- يا إلهي...! إلى متى سأضطر إلى شرب قهوتك باردة حتى لا ترميها!

أجبت بابتسام:

- إلى أن تحبيها باردة، أو تسمحي لي بسكبها على الرمال!

- آه.. حسنًا، حسنًا، سأجلب من السوق بعض الحاجيات أتريدين شيئًا من هناك؟

رددت بحماس ممزوج بالضحك:

- نعم أريد، أريد قصة حب ناقصة لأكمّلُها!

*****

في وسط المعمعة!

أحجارك تترامى فوق رأسي كنت دائما تحاربني بكل ما لديك من قوة وسلطة بجنودك وخيولك ومن خلف قلاعك.. كان ذلك السواد الذي يجتاحك يضفي إليك مزيدا من الرعب والرهبة.. أما أنا لطالما كنت أمثل البياض الناصع بجيشي البسيط.. أراه دائما بسيطا مقارنة بجيشك القوي العنيف الصامد دائما.. رغم أنك تملك ما أملك وبنفس الأعداد أيضا!!أخذت تقذف بي وتقذف وتلحق بي وبجيشي الإصابات دون ان أجد من يعالجها ويداويها.. ولكن هذه المرة كنت قد قررت!! لا بل خططت ثم قررت أن أفاجئك بهجمة سترديك قتيلا أيها الملك ولكن حتى أقوم بهذه الهجمة وأنفذها يجب عليّ ان أضحي بعدد كبير من جيشي العزيز؟!ولم الكذب!! أنني اضحك بل وأسخر من نفسي فلا يوجد هنا أية تضحية!! فجيشي العزيز تقل أعداده دون إرادة مني ورغما عني وهذا كله خارج دائرة التخطيط فأين التضحية هنا؟!إذن فهذه الهجمة هي بمثابة ضربة حظ قد تنجح وقد تفشل لذا سأقوم بها ربما ليس لشجاعة مني وإنما سأجازف لأنني مضطر للمجازفة فلا يوجد هناك خيار آخر وإن كان أسوء !!وأخيرا حان الوقت وتحركت بجيشي لأواجهك واندلعت الحرب التي هي عادة حربك!! وتطايرت الجثث أمام عيني بلحظة خاطفة لطالما كنت قوي شرس!! وبوهلة سريعة سقطت أيها الملك في وسط هذه المعمعة!! لقد فعلتها يا عزيزي ونجحت معي ضربة الحظ هذه وأصبحت الحرب حربي أنا ولأول المرة!! زمجرت بسخط وغضب شديد وكأنك مللت من الهزيمة التي أتمثلها أنا دائما لا أنت!! فلم الغضب عزيزي؟!صرخت بي قائلا: تبا!! إنها مجرد صدفة أليس كذلك؟! إنها رمية من غير رامي أليس كذلك؟! أنت لم تتعمدها حتما أنا أعلم ذلك أعلمه فاعترف بهذا أفضل لك!!قلت مبتسما وقد زادني غضبه لذة أشد من لذة النصر ذاته: نعم أنت محق أنا لم أتعمدها ابدا!! أنا عشت طيلة حياتي أخطط لها!! نهض بعدما رمى بطاولة الشطرنج عليّ وهو يصدر صوت زمجرته المخيفة ممزوجة بكل أنواع الشتائم!! كل هذا الغضب من أجل أول هزيمة له!!تأكدت حينها بأن هذه الحياة لا تعطيك شيئا حتى تسلبك آخر!!فمدمن النصر خاسر وجاهل للذة النصر بعد الهزيمة!! فالنهاية هي مجرد لعبة شطرنج فلم الغضب عزيزي!

*****

نعيش لننتحر!

لا شيء يبقى لنا.. كل الأشياء راحلة عنا يوما ما.. حتى تلك اللحظات التي نمسك بها قلمًا نعجب بخطوطنا فيه ونقاتل حتى لا يكتب به أحد سوانا ستأتي اللحظة التي يجف بها.. كيف لنا أن نجمع في دواخلنا تلك البساطة في حب الجمادات بينما نتكابر على مشاعرنا فيما بيننا!!

هل يعقل أن يكون على وجه الأرض مخلوقًا أكثر تعقيداً من الإنسان؟!!

كيف سيكون ذلك المخلوق؟ كيف سيبدو؟ كيف سيتحمل العيش أكثر!!؟

أو ربما من الحكمة التساؤل بهل يعقل وجود مخلوقات تقتل ذاتها كما الإنسان!؟

نحن نخلق لأنفسنا تناقضات حتى نعيش، وحينما يصعب علينا العيش معها ننتحر!!

أيّ عقول نحمل في رؤوسنا، أيّ مشاعر نحمل في صدورنا، أيّ اندفاع تحمله أصابعنا وأيّ بؤس تحمله قبورنا!!

لن أكتب عن التاريخ بعد اليوم، لم أكتب عن التاريخ قبل اليوم!! لم أشهد بشاعة في التاريخ كبشاعة اليوم!!

نحن نموت ليس لأننا أحياء، ولا نموت لقلة أمواتنا، نحن نموت كي نصنع من أجسادنا وقلوبنا وأجنتنا النفط لهم.. للعدو التاريخي!

ولمثل هذه التناقضات نحن نَقتُل ونُقتَل وننتحر!!

*****

سَجِين زِفَافه!

حينما تقتسم من روحك جزءًا صغيرًا لتراه ينمو بعينيك وأنفاسك فيأتي من أوهمك تلك السعادة ويسلبه منك!!

حينها تعلم بأنه لا وجع في هذه الحياة يساوي ذلك الوجع ولا عقاب أقسى من أن تُعمَا عيناك عنه وأنت مبصر. في كل مرة أشهد فيها على زفاف أشتم رائحته حولي تقترب ثم ترحل بعيدًا برفقة العروسين السعيدين. وفي كل مرة أخرج بها للحياة أجدني مازلت سجين ضحكاته وبكاءه. لطالما ظننت أني شخص هادئ مسالم لا أبحث عن المشكلة حتى لا أرهق عقلي بإيجاد الحلول لأكتشف الآن أنني قد اعتدت المعركة وأبصرت وجود المحاكم من حولي وتدربت جيدًا على الحديث بنبرة عالية هائجة وحافظت على موقع الهجوم في كل جلسة وتشربت الهزيمة حتى تشبعت حواسي كلها بها، تمنيت أنني لم أكن مسالماً وأنني خُلقتُ مع المشاكل لتُخلق الحلول معي فلا أكون الآن مهزومًا رغم كل جهودي!!

لا إنصاف دائم في هذه الحياة لذا لا أبحث عنه إنما أبحث عن روحي التي تجزأت وبهتت وذبلت وحُرمت من لملمتها من جديد، وكل سعادة زائلة لذا لا أبحث عنها إنما أبحث عن تلك الرائحة التي سلبتني الإحساس بمن حولي، وكل جرح في يوم ما يلتأم لذا لا أبحث عن دواء ولا أجري خلف طبيب إنما أجاهد فقط على ابتلاع ألمه بداخلي في كل مرة أقوم بها بتمرين الذاكرة حتى لا أنسى ملامحه الصغيرة المتغيرة بعد كل يوم وكل عام من عمري الذي توقف دونه. أي ذنب يستحق كل ذلك العقاب وأي عقاب يستمر كل ذلك الزمن وأي سعادة آمنت بها قليلًا وكفرت بها عمري المتبقي كله!!

كيف يُحرَم الإنسان قطعة منه فيتوه كيانه بأجمعه ليلجأ مستضعفا إلى مطرقة من خشب كي يستردها بعد أن خسر ما تبقى منه!!

كيف لإنسان أن يرى المستقبل متعلقًا بذلك الصغير متجاهلًا بعده جميع إنجازاته الماضية التي أسند عليها مستقبله في ذلك الوقت!!

أنتغير كثيرا في زمن قصير!؟ أم أننا نتعرف على حقائقنا بعد ذلك الزمن الطويل!!؟

نظن بأننا نسعى لهدف قد رسمناه بينما نجري خلف ما نشعر به ونرغبه دون تخطيط دون وعي دون شهادات نعلقها على الحائط خلفنا!!

لنكتشف أن سعادتنا مغايرة لما كنا نهدف الوصول إليه.. لا أعلم بل ولا أعي شيئاً سوى أنني أقاتل للنظر إليه.. إلى صغيري البعيد.

*****

وَحيدةٌ هِيَ كَحبيبُها الجبان!

وشعرك الطويل الذي حينما قصصتَه ابتدأت معه القصة، لم أكن أعرفني جيدًا قبلها وها أنا ذا ازداد جهلًا بي وبك، كم يدهشني صعوبة أن تعيش إنسانًا! كنت أعلم ذلك ولكني اعترفت بها مؤخرًا،، أن تكون تائهًا رغم أنك في حجرة منزلك،، أن تعمل جميع حواسك على أكمل وجه دون أن ترى وتسمع وتعي شيئاً ،،أن تحيي الراحلين عنك من حولك بصورة،،رائحة أو حتى قلمًا قد لمسته أناملهم صدفة،، خربشة لا معنى لها على طرف منديل تحضنها بكفّيك لتخبئ بها أرواحهم وتبكي،، حينما تشتهي النسيان وتخشاه في آن واحد ثم تبحث عن سحر يطفئ ألمك فليس هناك دواء لألمك بعد،،أن تؤمن ببعض المستحيلات وكثيرًا من التفاهات فقط لتتمكن من العيش ليومٍ آخر ،، أن تخترق القوانين التي كنتَ قد وضعتها لنفسك ولي لعلّ باختراقها يتغير وجعك لنوع آخر،، أن تسأل نفسك كل يوم لمَ أسهل الأمور لنا أصعبها علينا،،لا جواب حتى الآن،،نموت ونحيا ،،نحيا ونموت فلا نشعر بهذا ولا ذاك.

ردّ بصوت متقطع: لا أعلم أتتحدثين عن الحب، أم أنها الأمومة؟

ابتسمت لتجيب بذات النبرة التي سُئِلَت بها: أتحدث عني وعنك.

- أيجعلنا الحب ضعفاء وجبناء هكذا!!

- الحب يوهم ضعيف القلب بالقوة، ويجعل رجيح العقل أبلهًا، يخفف وحدة الوحيد لبرهة، ويترك العنيد ذو المبادئ تائهًا، يضعف كل من كان قويًا مكتفيًا بذاته، ويقتلنا جميعًا ببطء! إلا الجبناء فالحب بريء منهم!

- لم أكن أعلم بأنك تشعرين بي، بل وتصفين ما أشعر به وبهذه الدقة!!

- كنت أجهل جهلك بمشاركتك لي دمي وروحي فكيف لا أشعر بك!!

- أخبريني إذًا، هل أشعر بموتي قريبًا؟

- هل تسألني أم تخبرني بذلك؟

ابتسم بعينيه الحزينتين والتزم الصمت كعادته
- أعطيتك جزءًا من روحي لتحيا لا لتموت
- لم أرغب بالموت أبدًا يؤلمني ذلك الشعور، يؤلمني أن أراكِ حولي ثم تختفين وأختفي، يؤلمني حدوث ما نكره حدوثه رغم ذلك نفضل الحياة دون الموت!
- أنت اخترت الاستسلام للموت يا صغير، اخترت ان تكون جبانًا ليتخلى عنك الحب، لأتخلى عنك كما الجميع!
- أنا لم اختره، أنا رجل أضعف من أن يختار لذا أخبريني بأني لن أموت.
- لمَ تريدني أن أخبرك بشيء أنت لا تؤمن به؟!
- فقط ليرتاح قلبي، لا أريد لهذا الضعف أن يقتلني
تنفست ببطء وقالت: إذًا ستحيا ولكن في عالم آخر.
- وأنت؟! هل ستكونين هناك، في ذلك العالم؟
- ربما يا صغيري، ربما ستكون أرواحنا معًا
- وماذا إذا كبرت وبت رجلًا كما ترغبين قويًا، بت مثلك؟ هل سنحيا معًا مجددًا؟
نهضت من على الكرسي أمامه، حملت حقيبتها السوداء، نظرت إليه بصمت بعدما ابتسمت له بحزن ثم رحلت، كانت هي من اختار الصمت هذه المرة.

*****

وراء كل رجل عظيم...؟!

"إذا كنت لا تعلم عن الشيء فلا تلغي وجوده" لطالما سمعت هذه العبارة من تلك الشفاه الرمادية..
سمعتها حتى حُفرت في عظام جمجمتي وإن كرهت ذلك.. كنت اقرأ واقرأ وأنا ابكي حتى أطفئ ذلك اللهيب المنطلق من فمه وكأنه تنين..
أردت ان أعلم عن كل شيء هنا وهناك في خارج إطار كوكبنا لابل هو من أراد ذلك وليس أنا لطالما كنت أجلس بجواره مرتجفا وكان هو يسكن رجفتي بل ويقتلها ليقتلني بحفنة من الكتب السميكة
يدفعها إليّ بيده القاسية التي كانت تدفع بكل شيء أمامها حتى جسدي الصغير..
كنت ابتسم بشك كلما سمعت عبارة (وراء كل رجل عظيم امرأة)
فلا أعلم ان كنت أنا حالة شاذة ام من أطلقها يجهل منهم أمثالي؟!
أرادني عالما حكيما ليرفع هو رأسه وليس أنا..
أرادني خلفه كالصنم أتبعه دون ان انطق إلا بعد اشارة منه ونظرة مظلمه ومعتمه كعتمة عينيه.
وأنا.. أنا كنت لا أجرُؤ بأن أقول "أنا" أمامهُ حتى بت أخشى قولها في أي مكان وإن كان في نفسي وكأني أجحد ذاتي وأسحقها وإن كانت منعدمه أصلا.
لطالما أردت ان أقول له وأخبره بأني لا أكره ما يريدني ان أكون بحجم كرهي لسخريته مني وإن فعلت ما أرادني ان أكون!!
في كل مكان أتواجد فيه يقابلني الناس بابتهاج ويصافحني الجميع بحراره وفخر وكأنهم أنجزوا كل ما حلموا به بمجرد مصافحة وملامسة كفي المتعب شعرت بطعم الفخر الذي يتذوقه الجميع عندما يرونني إلا هو كنت لا أرى هذا الفخر في عينيه وكأنني قد خالفت ما أراد..
وإن تصنع الرضا أمام الغير والكبرياء إلا انني أعلم بأنه يحتقرني فهو يرى نفسه هو من حققني وأنا مجرد رجل ارتدى ما حاكته أصابعه..
وأريد ان أثبت من هنا من مكاني هذا بأنه هو حقا من صنع النجاح الذي يرتديني بل وصنع كل شيء فيني.. نعم له فضل كبير ولكن ليس علي!!

فأريده ان يعلم بأنه صنع نجاحي وأرصد جوائزي وعلق شهاداتي وتكلم بعباراتي عني ولكن حينما صنع هذا النجاح كان قد صنع معه فشلي أيضا وحينما رتب تلك الجوائز كان قد رتب معها مسيرة حياة فاشل وحينما علق تلك الشهادات كان قد علق معها دموع قد طبعت على ورقها وحينما نطق بتلك العبارات كان قد أخطأ في فهم عبارات ذلك الفاشل...!!

حقا أريد ان أقول لك أنت لا تعلم ما بداخلي وما هي حقيقتي بل ولا تأبه بها أصلا!!!

لذا سأختم حديثي بعبارة حفظناها سويا وطبقتها أنا وحدي "إذا كنت لا تعلم عن الشيء فلا تلغي وجوده"!!

وضع الجائزة ونزل من خشبة المسرح ولكن هذه المرة كان الاحتفال هادئاً ودون تصفيق حار!!

*****

خلفَ هذهِ التجاعيد!

أقررت أن تفقد ذاكرتك فجأة يا عزيزي؟!
كيف تنكر صورتي وأنا أراها منعكسة على قزحيتك؟!
أراها واضحة بتعابيري المجروحة وبالتجاعيد المحفورة بشدة على بشرتي!!
كان جُحُودُكَ لي قد زاد تلك التجاعيد عمقا وأضاف إليها ذلك الألم الذي كنت أخشاه!!
لا أعلم أأسخر منك أم من نفسي الضائعة؟!
التي كانت موقنة بخيانتك لي يوما ما ورغم ذلك أكملت طريق الغفلة المصطنعة!!
وأخيرا أيقظت نفسي الغارقة بالأفكار وأدرت ظهري لك لأنني سأغير هذه المرة طريقي بعد
أن قررت متأخرة كثيرا أن أفقدك!! ابتعدت وأنا أود لو تمكنت من رؤية انعكاس صورة ظهري على عينيك لآخر مرة!!

*****

القزحية!!

غريبة هي عقولنا!! فبالرغم من الأفق والمدى البعيد الذي أمام أعيننا إلا أننا لا نرى سوى محيطها الضيق!!
لم يمضِ على جلوسنا سوى بضع ثوان حينما سألتني صديقتي الجائعة بلهفة:
- حسنا ماذا ستأكلين؟
- لا أعلم!! سأرى قائمة الطعام أولًا
كانت هي قد سبقتني إلى ذلك حتما!! أخذت تتمتم بصوت مزعج أنواع الأطعمة المتوفرة!!
كنا نجلس على طاولة يطل يمينها أو بالأصح على يميني أنا!! سور قصير مغطى بالأزهار ومن خلفه شارع واسع محاط بأنواع المطاعم تماما!!
في هذه اللحظة وبينما كنت أبعد عينيّ عن قائمة الطعام التي أمامي لأسرق نظرة سريعة من حولي رأيته أمامي!! أمامي مباشرة لا يبعد عني سوى بضعة أمتار تمنعني من التقاط صوته جيدا فقط!!
كانت هذه النظرة كافية لأتنبه بأن قزحيتاه الزرقاء كانتا مثبتتين عليّ بإحكام!! أنزلت وجهي كاملا وليس عيناي فقط نحو قائمة الطعام!! شعرت بالحرج فحتما كانت نظراتي إليه شديدة اللفت للنظر!! قاطعتني بصوتها المعذب من الجوع:
- حسنا لقد اتخذت قراري سأطلب شريحة من اللحم مع البطاطس المهروسة وأنت؟
تلعثمت قليلا قبل أن أجيبها على سؤالها فلقد نسيت ما قرأته قبل قليل ولم أستطع فك الكلمات المتشابكة الآن أمامي!!:
- أظن أنني سأطلب شطيرة بالجبن مع عصير منعش!
قلت ذلك محاولة أن أبدو مبتسمة لأخفي ارتباك المُربك!!
رفعت حاجبيها الرّفيعين وقالت:
- اوه!! حسنا إذا!!
التفتت لتشير إلى النادل حتى يتقدم إلينا وخلال لحظات قصيرة كان يقف أمامنا مستعدا للطلبات!! تحركت صديقتي من على كرسيها قليلا قبل أن تبدأ بطلبها وحينما حان دوري كنت أجد صعوبة فالكلام بسبب تلك العينين هناك يا إلهي يبدو أنه مازال ينظر صوبي حتى الآن!! بعدما انتهيت أخيرا من طلبي أعدت ظهري إلى الكرسي ورفعت عيني بسرعة نحوه إلا أنني أنزلتهما بالسرعة ذاتها مع مزيد من التوتر!! يا للإحراج أنه ينظر إليّ أيضا ولكن هذه المرة رسم على شفتيه ابتسامة صغيرة!! شعرت بالتوتر يتغلب على حواسي حتى بدا صوت صديقتي الثرثارة بعيداً جدا!! صرخت في وجهي الآن وبقوة لتحيني من جديد!! قلت لها بغضب بعدما نظرت باتجاهه ووجدته يضحك واضعا كفه على الطاولة أمامه وهو يحدق بي طبعا!!:
- ما لذي جرى لك؟!! اخفضي صوتك أيتها البلهاء لما كل هذا الصراخ؟!!
- آه!! حقا!! اسألي نفسك أولا هذا السؤال؟ّ!
- هنالك من يضحك علينا بسببك!!
- منذ متى تأبهين بالآخرين؟!!

- اصمتي اصمتي!!
- لم تجيبيني؟!!
- على ماذا؟!!
- ما رأيك؟!!
- بم؟!!
- آه!! سحقا!! ما الذي يحصل معك؟ أين عقلك كل هذا الوقت؟!
- اهدئي سوف أخبرك الآن!!
اقتربت مني وهي تتمتم بحماس وإثارة:
- ماذا؟ ماذا هناك؟!!
- إنه.. هنالك رجل.. خلفك.. لا لا تلتفتي.. ابقي ثابتة!!
- كنت أريد أن أراه!!
- لا لا إنه ينظر إليّ الآن لا تتحركي!
- حسنا أكملي.. ما به؟!
- لقد أخبرتك!! إنه ينظر إلي!!
اختفى الحماس والإثارة من وجهها وعلا صوتها من جديد بسخرية:
- ماذا؟ هذا فقط ما يقلقك؟! تبا لك إذا!! كنت أتحدث مع نفسي طيلة الوقت بسبب عذرك هذا؟!!
- آه يا إلهي!! اخفضي صوتك أرجوك إنه يراقبني منذ أن وصلنا إلى هنا!! بل إنه لم يزح عينيه عني ولا للحظه!!
- فقط!!
- إنه حقا يوترني!!
- أعلم ذلك وهو أيضا يعلمه لذا فهو يتعمد مضايقتك!
- ماذا أفعل؟ هل ننهض من هنا؟!
- ماذا؟!! والطعام؟!! سيصل بعد قليل حتما!!
- كفى أرجوك!! لن نخرج من هنا سنغير مكان جلوسنا فقط!!
- لا لا هذا المكان يعجبني ولن أغيره من أجل رجل لا يهمني!!
- أنت ستغيرينه من أجلي وليس من أجله؟!!
كانت ستفتح فمها حينما وصل النادل ومعه الأطباق ابتسمت بسعادة حينما رأت الطعام وقد مسح حديثنا من ذهنها هذه اللحظة!! نظرت إليها بتعجب حينما وجدتها تباشر بتناول الطعام فتلعثمت قائلة:
- تجاهليه.. تجاهليه!!
وعادت إلى طبقها مجددا!! أما أنا فحاولت فعلا أن أتجاهله وأتصرف بطبيعتي إلا أنني فقدت زمام الأمور حينما رفعت عيني نحوه وأنا أمسح كفي بمنديل نظيف.. لقد كان ينظر لي مقهقها هذه المرة وكأن ما أقوم به شيء مضحك!! ضايقني ذلك كثيرا وشعرت برغبة كبيرة بأن أدفن وجهي كالنعام!! أو أن أختفي تماما لآتي إليه من خلفه وأضربه على رأسه ولربما لو قمت بسحب كرسيه من تحته سيرى بأن ذلك مضحك فعلا!!

قاطعتني وهي تمضغ طعامها قائلة:
- لما لا تأكلين؟!!
- نعم نعم سآكل الآن..
نظرت إلى طبقي واكتشفت عندما قررت المباشرة بالأكل مشكلة جديدة!!
آه يا لغبائي لما لم أطلب شيء أسهل من هذا؟!! كيف سآكل شطيرتي البائسة الآن يبدو أنني أهديته شيئا يضحك عليه الآن!! وطبعا ولأنني قررت أن أركز جيدا فقد فقدت التركيز تماما فلقد سقطت من يدي السكين تلتها ضربة على وجه كارلا حينما أردت أخذ منديل آخر وأخيرا وضعت في فمي لقمة كبيرة من الفراغ!! وذلك لأن اللقمة الواقعية الملموسة قد سقطت على قميصي دون أن أنتبه لها!! يبدو أنني لم أحكم غرس الشوكة عليها جيدا! كل هذه الأحداث جرت متسلسلة حينما قررت التركيز!!
كانت الشطيرة قاسية قليلا حينما قالت لي وأنا أحاول الحصول على لقمة أخرى:
- لما لا تأكلينها بيديك كالعادة؟!
- أتبادلينني الطعام؟!!
رمقتني بنظرة ساخرة وقالت:
- انظري إلى طبقك!! أرجوك كيف ظننت أنني سأقبل عرضك؟!! أكاد أقع من الجوع كيف أعطيك لحمي اللذيذ وآكل شطيرتك البائسة؟!!
- كم أنا غبية لما لم أطلب شيء سهل تناوله مثلك؟!!
- سهل تناوله؟!! أهذا ما يزعجك؟!! عليك أن تنزعجي من عدم اختيارك شيء ألذ وأشهى من هذه الشطيرة!!
- لا أريد أن أبدو حمقاء بطريقتي هذه!!
- طريقتك هذه؟ ما بك كيت منذ متى أنت تستائين من طريقتك فالأكل؟!!
- كفى أرجوك!!
أبعدت عيني عنها ووضعتها على وجهه توقعت أن أجده يضحك من جديد ولكني وجدته ينظر إليّ صامتا خاليا من أي تعبير!! لم أزح عيني عنه هذه المرة بل أخذت أستغل كل رمشه يرمشها حتى أتمعن فيه أكثر!! قالت مجددًا:
- نعم أحسنت لا ترفعي عينيك عنه أنظري إليه بتحدي دعيه هو من يبعد عينيه أولا!!
- يا إلهي إنه بجح لقد أزرق وجهي ولم يرفع عينيه أبدا!!
- تباً كفى بلاهة هل تظنين أنه سيحرج كثيرا حينما تنظرين إليه؟!!
- ألم تقولي لي منذ ثواني أن.....
- كنت أسخر منك حتما!! لا تخبريني بأنك قد فقدت التمييز أيضا؟!!
- فلتصمتي إذا!!
ابتسمت بسعادة وهي تكمل طعامها بتلذذ!!
أخذت رشفة صغيرة من علبة العصير وأعدت النظر إليه كان رافعا رأسه قليلا للأعلى ويستمع لأحد صاحبيه الذي كان يتحدث بسرعة دون أن ينظر إليه حتى!! كانت عيناه ثابتة بإحكام عليّ لدرجة أنني شعرته يخترق أعماقي!! أجهل كيف يتعامل صديقاه معه بدون غضب؟!! إنه لا ينظر إليهم أبدا يبدو أنه تعود النظر في وجهي ولكن لا أعلم أهو شارد الذهن الآن وقد حطت عيناه مصادفة علي أم أنه حقا يتعمد إغاظتي!! ابتسم في هذه اللحظة

مما جعلني ألمس شعري لأتأكد من مظهره!! هل أبدو مضحكة لهذه الدرجة؟!! كانت ابتسامته قد زاد اتساعها حتى تحولت بالتدريج إلى ضحكة عميقة أستطيع تصور صوت لها في ذهني!! لربما كانت المسافة التي بيننا أفضل شيء هنا حتى الآن!! فهي تجعل مرور أصواتنا شيئاً صعباً لذا لا أظن أبدا أنه تمكن من سماع حواراتي مع كارلا ربما باستثناء صراخها في تلك الحوارات!! مع أنني تمنيت لبعض الوقت لو أنني أتمكن من سماع ما يتحدث به هو وصديقاه فلربما علمت ما يضحكه فيني إلا أنني سرعان ما غيرت رأيي بهذه الأمنية فمن الأفضل لي عدم المعرفة بما يضحكه فهذا قد يزيد من حدة توتري!!
نظرت إليه فوجدته يحرك شفتيه بهدوء ثم عاود الصمت أزحت عيني بسرعة وفي كل مرة كنت أشعر بارتباك أكثر أقرر بعده عدم النظر إليه مجددا إلا أنني أعاود الكرة ثانية!!
فكرت للحظة هل أشير له بيدي معبرة عن غضبي؟! آوه لا لا هذا تصرف أحمق جدا سوف يضحكه حتما!! من الأفضل لي عدم التفكير في ردات فعلي فهي ستبدو غبية جدا مهما حاولت أن أجعلها عكس ذلك!! كانت كارلا قد فرغت من طعامها بينما أنا لم أتناول من شطيرتي سوى بضع لقمات فقط واضعة كل جهدي على علبة العصير التي شارفت على الانتهاء في هذه الأثناء صاحت كارلا من جديد:
- أنت حقا لا تطاقين اليوم بدوت وكأنني أتناول طعامي وأثرثر مع نفسي!! آه انظري إلى نفسك إنك لم تأكلي طعامك حتى الآن!! لما كل هذا يا كيت؟!!
- لا أعلم لما تأثرت كثيرا لم أتوقع أبدا أن يزعجني شخص ما بمثل طريقته هذه؟!!
- قلت لك تجاهليه فقط وسترين أنه سيمل ويتركك في شأنك!!
- لا أظن أنه سيمل أبدا إن لديه إصرار وصبر فظيع!!
- كفاك مبالغة!!
في هذه اللحظة رأيت صديقيه ينهضان وهم يضعان هواتفهم في جيوبهما الخلفية فعلمت أنهما ينويان المغادرة الآن شعرت بقرب الفرج أخيرا أعدت النظر إليه من طرف عيني فلاحظت أنه التفت قليلا للجهة المعاكسة نظرت نحوه حينما علمت أنه لا ينظر لي الآن وقد أراحني ذلك كثيراً!! كان يلمس بكفه على الطاولة ليمسك بشيء قصير يشبه القلم وحينما نهض أخيرا وضع هذا الشيء بين كفيه وسحبه بسرعة ليجعل منه شيئاً طويلاً جداً مقارنة لطوله السابق فأصبح شبيها بالعصا هذه المرة!! ثم أخذ يمشي بهدوء وهي تمشي أمامه!! وأحد صديقيه يمسك بذراعه الأخرى ليساعده فالاستدلال على الطريق!! يا للمفاجأة!! كنت طيلة الوقت أحاول إبعادك عن ناظري.. عن حياتي!! لأكتشف أخيراً بأنني أنا من كان يقحمني في ظلامك.. وحياتك!!

أخذت أنظر إليه وهو يعبر الشارع بتأني حينما التفتت إليّ قائلة:
- إلى ماذا تنظرين؟!!
- لا شيء!!
ابتسمت بسخرية إلى نفسي وأمسكت شطيرتي بكفي أخذت قضمة!! رفعت حاجبيها باستغراب وقالت:
- آه كيف تجرأت على ذلك سوف يسخر من طريقتك السابقة فالأكل؟!!
- لا لقد رحل قبل قليل سآكل الآن بطريقتي!!
- هه يا لسذاجتك!!
ابتسمت لها وقد وافقتها الرأي هذه المرة يا لسذاجتي فعلا!!
قالت من جديد:
- آوه!! تبا ليتني رأيت من هو هذا الإعصار الذي قلبك قبل أن يرحل!!
حينها علمت بمدى قوة حظي لأنها لم تره أبدا!! يا للعجب كنت لا أملك الجرأة للنظر في وجهه مباشرة وها أنا الآن أنظر وبكل جرأة نحو خياله فوق مقعده الخالي الآن!!
وابتلعت القضمة الأخيرة..

*****

وكأنما مرآته!

كانا يتجادلان دون النظر إلى بعضهما البعض بداخل المطبخ الصغير في صباح كل يوم نفس المشهد يتكرر وذات الجدال يعاد، قالت له بصوت غاضب قد ملّ الحديث:

- متى تسأم الحديث عنه! لقد رحل عنك منذ زمن وأنت مازلت تتحدث عنه وفي كل صباح!!
- لأنني أراه أمامي في كل صباح، أراه مبتسماً لي بمكر سعيد جدًا بفشلي!
- يا إلهي!! هو فشلك أنت ولا علاقة لأحد بفشلك متى تعي ذلك!!
- بل من أنجبني لهذه الحياة وأنجب فشلي هو المسؤول عن ذلك هو سبب تعاستي، أوليس هو من أنجبني!
- ما هذه الحماقة! إنك فقط تكرهه لذا ترمي أخطاؤك وفشلك عليه!

رد بسخرية:

- أوليس جميعنا نفعل ذلك! ألا نعلق زلّاتنا وذنوبنا وتعاستنا عليه! على الشيطان!
- ما علاقة هذا بذاك!!
- إنه لنفس المبدأ، الكراهية والضعف، نحن نضعف أمام رغباتنا ثم نرمي النتائج على من نكره وإن كان ذلك الشخص غير مرئي كما الشيطان!
- ها أنت الآن تعترف بأنك تكرهه فقط لذا ترمي كل ما صابك على عاتقه!
- نعم أنا أكرهه وكثيرًا، أكرهه لمرحلة تجعلني أتحدث عنه وسأتحدث عنه في كل صباح حتى يتغذى كرهي له أكثر فأكثر!
- إنك أنت الشيطان وها أنا الآن أراك أمامي!

ضحك ساخرًا من جديد ليقول:

- نحن لا نولد شياطين، نحن نولد فضوليين وما من شيء نبتدئه بفضول حتى ينتهي بنا كحاجة، والاحتياج يصنع الشياطين!
- ألا يتمكن الشيطان من التوبة طالما هو قادر عليها! ليتخلص من تعاسته! ليتخلص من نفسه!
- أنا لا أستطيع التوبة ولا الغفران، لا أستطيع العودة من الفشل بعد الآن! أنا تبعت فضولي ثم احتياجي لأكون ما أنا عليه الآن، شخص خاسر تعيس كاره وحاقد فقط!

نظرت إليه مطولًا ثم قالت:

- أتعلم! إنك فعلًا ابنه! تشبهه كثيرًا وكأنما هو! وكأنما مرآته! لربما لذلك أنت لا تتمكن من تجاوزه! من تجاوز فكرة رحيله عنك! تكره تعلقك به لا كرهك له!

نظر إليها بغضب حاول الرد إلا أنه تلعثم كثيرًا، كانت عيناه تصرخان ولسانه صامتاً، لتكتفي هي بالنظر إليه دون خوف!! ثوانٍ مضت ليبكي ناهيًا بعدها ذلك الجدال الصباحي وللأبد!

*****

نهآية الخطوة الأولى...!

تولد الموهبة من أرحام الأمهات، وتدفن في مقبرة عقولنا!
يُحَاربُ الإبداع ليراه الجميع بالعين المجرّدة، إلا أنه يموت حينما يحشر الجميع آرائهم فيه...!
نحن خُلقنا مختلفين لنختلف، لا لنتظاهر بمدى التشابه المزيف بيننا...!
ربما نحن لا نختار عقولنا، إلا أننا نستطيع الاختيار بين إعطاء الآخرين الفرصة للتفكير وبين إسكات عقولهم فقط لعدم رغبتنا نحن بالتفكير!
نستطيع أن نختار عدم مشاركتهم أفكارهم وآرائهم بدلًا من حشر أنوفنا في أدمغتهم!
نستطيع أن نجعلهم يختارون من يكونون وماذا يريدون في حال عجزنا نحن عن الاختيار لأنفسنا!
لم أكتب لأنافس أحدًا ما يزعجني، وإنّما لأنني كاتبةٌ أنا رغمًا عنك يا أنفِي!

*****

الفهرس

- المقدمة ٣
- كلونٌ رمادي، كحياة بدونك ٤
- الحقيقة رجل والحلم امرأة ٧
- سطح الطاولة ٩
- طوفان ١٢
- عراة ١٤
- غربة جسد ١٦
- فقدان ١٨
- انكسار... ١٩
- عن ظهر قلب ٢٢
- أفافه ٢٤
- حبرٌ منَ السذاجة ٢٦
- الأحذية ٢٩
- الحجرة الراقصة ٣٠
- روحُ الشيطان ٣٤
- إنها ساعة دونَ النصف ٣٥
- ولأننا لعبة، فبلا منطق ٣٧
- وَجَعْ ٣٨
- كعيّني القطّة ٤٠
- رائحة ورُوح ٤٢
- في وسط المعمعة ٤٤
- نعيشُ لننتحر ٤٥
- سَجينُ زِفاف ٤٦
- وحيدةٌ هي كحبيبُها الجبآن ٤٧
- وراء كلّ رَجُلٍ عظيم ٤٩
- خلفَ هذهِ التجاعيد ٥١
- القَزَحيّة ٥٢
- وكأنما مرآته ٥٧
- الخاتمة (نهاية الخطوة الأولى ٥٨